الفصل الثامن

وساوس إسرائيلية

" اذا كان اليهودهم شعب الله المختار، فمن نكون نحن- المسيحيين- يا صاحب الفخامة ؟ "
[البابا " شنودة " للرئيس الأمريكي " جيمي كارتر في لقاء بين الاثنين سنة ١٩٨٩]

----١---------------------------------

لم يكن هناك بلد يتابع ما يجرى فى العالم العربي بدقة ويقظة أكثر من اسرائيل . وكانت متابعتها أيضا بشيء من العصبية والقلق - ان العالم العربى استقر فى وعيه منذ سنوات أن اسرائيل قادرة وقوية سواء من الناحية العسكرية أو السياسية – ولم يكن ذلك هو إحساس إسرائيل . فالبلد الذي كان العرب يتوهمون فيه القدرة ، كان في داخله مصاباً بالوساوس وعرضة في كثير من الاوقات لأزمات الشك في الذات . وتلك قضية مركبة ، وهي متصلة بجذور التاريخ اليهودي نفسه . فاليهود منذ زمن التوراة يرون أنفسهم قبائل داخلة في صراع حياة او موت مع قبائل أخرى . وقد استقر في وجدانهم أنهم دائماً المحاصرون والمطاردون . وحتى عندما ذهبوا إلى التيه ، فلقد حملوا معهم عقدهم الدفينة . وعندما وصلوا في ترحالهم إلى أوروبا ، لم يكن في مقدور أي مناخ خارجي ان يمنحهم اليقين الذى فقدوه من الداخل . وهكذا فإنهم حتى فى ملاذهم الأوروبى كانوا هم الذين عزلوا أنفسهم بأكثر مما عزلهم الآخرون . ولقد كان هذا الانعزال نفسه هو مبعث الاضطهاد الذي لحق بهم فى بعض العصور وفى بعض الأوطان . فقد كانوا هم النين بدأوا باعتبار أنفسهم شيئا مختلفا- بدعوى أنهم شعب مختار باتفاق مباشر بينهم وبين الرب – و عندما تعامل معهم الآخرون وفق شروط الاختلاف التى وضعوها بأنفسهم ، كانت شكواهم من الاضطهاد . إن هناك رأيا فى العالم العربى له وجاهته يرى أن ادعاء الاضطهاد اليهودي ليس له ما يبرره ، وإنما هو مجرد ذريعة لاستثارة عطف الآخرين أو ابتزازهم . ولكن الحقيقة أكثر تعقيدا من هذا الظن الذى يبدو عقلانيا، ذلك أن ضمائر البشر لا تصنعها العقلانية وحدها ، وإنما تتفاعل فيها وتكونها عناصر كثيرة تدخل فيها الأساطير والمواريث والعقد ، وحتى الصور التى تريد المجتمعات أن ترسمها لنفسها، وإن كانت زائفة ، فحتى الزيف لدى أصحابه يتحول إلى عنصر واقعى مؤثر وفاعل!

وعندما صدر " وعد بلفور " ليعطى اليهود تعهدا بوطن قومى فى فلسطين ، فإن اليهود النين جاءوا من أورربا الشرقية عادوا يحملون معهم نفس نظرتهم التقليدية إلى " الجوييم " (كلمة عبرية تترجمها المعاجم العبرية بالكلمة العربية " الأغيار " (الآخرون)) ، وهو الوصف الذى يطلقه اليهود على كل من هو غير يهودي . أي ان المنظور اليهودى يقسم البشر جميعا إلى نوعين من الناس: اليهود- و " الأغيار " أي الآخرون جميعا على اختلاف قاراتهم وأوطانهم وثقافاتهم . وتلك عقدة نفسية مزعجة ، خصوصا إذا ما تملكت مجتمعا بحاله، وكان لديه فعلا من ظواهر الأحوال ما يوقع في ظنه أنه محاط به من كل جانب .

وفى حين أن العالم العربى كان يجد نفسه منقسما، ومنهكا، و ضعيفاً في حقبة الثمانينات - فإن إسرائيل راحت تنظر إلى شكل التكتلات العربية الناشئة من حولها وتشعر بالتطير والشك . والغريب أن الحقيقة العربية بالتفاصيل والأرقام كانت متاحة لإسرائيل وموجودة تحت تصرفها، فلم تكن هناك فى الواقع العربى أسرار، وحتى إذا كانت هناك أسرار، فان وسائل إسرائيل الخفية كانت

قادرة على الوصول اليها- ومع ذلك فإن إسرائيل راحت تشعر بقلق حقيقى ، ولم يكن فى الحقيقة العربية شيء يمكن أن يخيف إسرائيل ، ومع ذلك خافت . ولعله كان حوارا بين الأوهام . أوهام عربية ظاهرة ، فى حوار مع أوهام إسرائيلية غائرة !

وعندما قام مجلس التعاون العربى، فإن إسرائيل عبر قنوات اتصال متعددة أبدت قلقها لمصر، واعتبرت اشتراك مصر فى هذا المجلس نوعا من الخروج على روح اتفاقية " كامب دافيد " .
وعندما طرحت فكرة إنشاء فيلق عربى مشترك لدول مجلس التعاون العربي ، أبدت إسرائيل قلقا حقيقيا. وعندما اعتذرت مصر عن الاشتراك فى هذا الفيلق المقترح ، لم تسترح إسرائيل لأنها راحت ترصد المعلومات عن مضى العراق والأردن معاً في تنفيذ الفكرة ثنائيا.

كانت إسرائيل قد رصدت تطور ونمو القوة العسكرية العراقية ، كما تابعت قدراتها في المرحلة الأخيرة من العمليات على جبهة الحرب مع إيران . وعندما دخل العراق بالتعاون مع مصر إلى مجالات من التقدم التكنولوجى العسكرى استمر حتى بعد تحقيق النصر على إيران - اعتبرت إسرائيل من وجهة نظرها أن مجرد اشتراك العراق مع مصر ومع الاردن يمثل نوعا من المزيج الخطر الذى تكمن فيه- ولو حتى بالرمز- احتمالات تهديد في يوم من الايام .

وكان العراق بالتحديد موضع حيرة اسرائيلية لا تستقر على رأى . فاليهود لهم تاريخ قديم في بغداد ، وبين المهاجرين إلى إسرائيل من البلاد العربية ، فإن نسبة القادمين من العراق كانت من أعلى النسب قياسا بغيرها . وبالتالى فإن إسرائيل كانت تتصور أنها تعرف الكثير عن العراق ، ومع ذلك فقد ظلت لديها شكوك قوية فى توجهاته :

١- فالعراق لم يعقد اتفاقية هدنة مع اسرائيل ، كما فعلت بقية الدول العربية.
٢- والعراق لم يكن مضطرا الى ذلك ، لأنه ليس على خطوط تماس مباشر مع إسرائيل ، ومعنى ذلك أن قوة إسرائيل لا تطوله مباشرة .
٣- وهذا الوضع يعطى للعراق حرية فى ممارسة سياسة غير مقيدة فى الصراع العربي – الاسرائيلي ، وهذا يسمح له بأن يكون طرفا عنيفا ، ومغاليا بأكثر من غيره .
٤- والعراق قوة عسكرية لا بأس بها ، وللك القوة من تقاليده . فهى لازمة للحفاظ على تماسكه ، ثم ان الذين قاموا على مشروع بنائه فى العصر الحديث ، وفى مقدمتهم ، نوري السعيد (باشا)، كانوا ضباطا فى الجيش العثمانى .
٥- والعراق دولة تملك ثروات هائلة فى موارد البترول والمياه ، ومعنى هذا أنه قوة محتملة - اقتصادية وعسكرية.
٦- والعراق في وضعه الجغرافى يستطيع أن يضغط على الأردن ، وعلى سوريا لمنعهما من أية تسويات ممكنة مع إسرائيل .
٧- والعراق - أخيرا - ولحقبتين متواليتين ظل تحت حكم حزب البعث العربى الاشتراكي ، وهو حزب له أفكاره والتزاماته القومية ، ومهما اختلفت الآراء حوله، فإن الحزب له نواة صلبة ، وله قاعدة يسعى إلى توسيعها ، وله برنامج يريد تنفيذه - وهو فى سبيل تحقيق ذلك كله يواصل عملية

تعبئة عقائدية وسياسية وجماهيرية لايستطيع أحد أن يقدر سلفا الى أين تصل ، والى أى النتائج تؤدى ؟

وإذن، فقد كان دخول العراق مع مصر والأردن واليمن الذى يمسك بالمداخل الجنوبية للبحر الأحمر- هاجسا، ولم تكن إسرائيل قد نسيت أن بغداد كانت صاحبة الدعوة إلى مؤتمر القمة العربى الذي قاطع مصر بعد اتفاقيات " كامب دافيد " (١٩٧٩) – كما أنها كانت مقرا لهذا المؤتمر .

وفى سنة ١٩٨٨ كانت إسرائيل تحتفل بمناسبة مرور أربعين سنة على تأسيس الدولة ، وكان جو الاحتفالات تظلله مسحة قاتمة لم يكن لها فى الحقيقة والواقع ما يبررها . فالدولة اليهودية كانت عند أقصى درجات القوة ، وكانت ترسانتها النووية معبأة بأكثر من مائتى قنبلة ذرية . وكان سيل المساعدات الأمريكية، إلى جانب مساعدات اليهود في العالم ، مازال يتدفق أسرع وأكبر . ففى تلك الممنة ١٩٨٨ حصلت إسرائيل على مساعدات ومعونات وهبات وتبرعات بلغت قيمتها ٩ بلايين دولار [**٤ بلايين دولار من الحكومة الأمريكية ، والباقي تكفلت به حركة تبرعات وسندات إلى آخره .**] ، أي بمعدل ثلاثة آلاف دولار سنويا لكل يهودى يعيش داخل حدودها. ومع ذلك كان مزاجها حادا وأعصابها مستثارة .

كان هناك سبب واضح لهذه الحاله النفسية ، وهو الانتفاضة . وهذه الانتفاضة أزعجت إسرائيل بالفعل، فالشعب الفلسطينى الذى كانت تتمنى أن تنسى الدنيا مجرد وجوده ، هب فجأة متجسدا فى جيل جديد غاضب ، وكان ذلك مزعجا لإسرائيل ، لكن الذي أزعجها فيها أكثر، هو أن مئات الصحفيين الذين كانوا فى المنطقة يغطون الحرب العراقية- الإيرانية ، أو عمليات إنشاء مجالس التعاون الإقليمى المختلفة ، او قضايا البترول والمال فى الخليج، أو عمليات التفجير والنسف والخطف فى بيروت – تركوا فجاة شواغلهم السابقة، وأقبلوا بأقلامهم وعدساتهم يتابعون مأساة شعب أعزل يواجه قوة نووية بإلقاء الحجارة على قواتها فى القدس ، ونابلس، والخليل، وبيت لحم ، وغزة ، وغيرها...

وبالطبع فان الانتفاضة ، كما شدت اهتمام العالم الخارجى ، فعلت نفس الشيء إلى حد ما فى العالم العربي . ان معظم دول العالم العربى حاولت إلى حد ما ان تتجاهل الانتفاضة خوفا من تأثيراتها المحتملة على جماهير تلك الدول . لكن عنصر المنافسة بدأ يطرح استغلال الانتفاضة بدلاً من تجاهلها . وكان الأساس الذى استندت عليه هذه المحاولة هو : من الذى يساعد الانتفاضة، ومن الذى لا يساعدها . وتبارت بعض الدول العربية فى الإعلان عن أرقام للمساعدة لم يكن هناك ما يؤيدها غير قول أصحابها . ذلك ان بعض دول الخليج أعلنت انها تساعد ، ولكن عن غير طريق منظمة التحرير، وكانت الحجة أن منظمة التحرير داخلة فى معارك على جبهات شتى بينها لبنان، كما أن هذه المنظمة التى حولت نفسها لشبه حكومة راحت تستهلك جزءا كبيرا من مواردها فى نفقات ادارية لاتتصل بالضرورة باحتياجات الانتفاضة . وعندما تعلن دولة أنها تساعد وبغير طريق المنظمة، فمعنى ذلك أنها تعتمد على وسائل وترتيبات هى وحدها تعرفها، وهى وحدها تعلن حساباتها دون أن يكون لأحد غيرها وسيلة للجمع والطرح . وعلى أى حال، فقد كانت مساعدة العراق في دعم الانتفاضة هي المساعدة المعلنة والمفتوحة التي تمر عن طريق المنظمة بإسهام قدره أربعون مليون دولار في السنة .

كان موضوع الهجرة أيضا داعيا لقلق إسرائيل ، فهى فى أساس إنشائها وطن قومى لليهود فى العالم، ويهود العالم كله لا يزيد تعدادهم على ١٤ مليون نسمة : خمسة منهم في أمريكا ، وأقل من أربعة فى إسرائيل ، ومليونان فى بلاد مختلفة من أوروبا الغربية وجنوب أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وكل هذه المواقع لا تمثل مصدراً محتملا للهجرة ، فهم إما هناك فعلاً في إسرائيل (أقل من أربعة ملايين) ، و إما أنهم مستقرون حيث هم مثل يهود أمريكا وأوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية وإلى آخره . وإذن يتبقى يهود الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، وعددهم لا يتجاوز المليونين . وهؤلاء هم مصدر الهجرة اليهودية المرغوب فيه و المأمول والمنتظر . وكانت التطورات الجارية فى الاتحاد السوفيتى واوروبا الشرقية تعطى إسرائيل أملاً كبيراً فى انفتاح أبواب الهجرة اليها على مصاريعها ، ومع ذلك فإن هذه الأبواب كانت تتبدى مفتوحة فى بعض الأحيان، وفى بعض الأحيان الأخرى كانت تبدو مواربة . وفى كل الأحوال ، فإن يهود الاتحاد السوفيتى الذين كانوا يهاجرون منه راحوا يفضلون الولايات المتحدة الأمريكية حلما ذهبيا وفردوسا موعودا. وسعت إسرائيل بكل الوسائل حتى جعلت هجرة اليهود السوفيت إليها فرضا بالقسر على المهاجرين ، فقد نجحت فى استصدار قانون من الكونجرس يمنع عمليا يهود الاتحاد السوفيتي من الهجرة إلى الولايات المتحدة ، ويفرض عليهم رغم إرادتهم ، وضد رغبتهم أن يتوجهوا لإسرائيل . وكان ذهاب بعضهم لاسرائيل فاتحة لنوع جديد من المشاكل تتصل بالتمويل وبفرص العمل وبالإسكان ، مع توفير حد أدنى من الخدمات الاجتماعية . وفي نهاية سنة ١٩٨٨ وإسرائيل تتصور أنها بقرب تحقيق أملها الواسع، كانت المشاكل تحاصر هذا الأمل حتى بالكلمات . فإن أحد الحاخامات القادمين من الاتحاد السوفيتي وقف ليقول " إن اليهود السوفيت يبحثون عن أرض الميعاد التي هي بالنسبة لهم جنة الله على الأرض ، ورسالتي لهم بسيطة ومحددة ، وهي أن الجنة ليست هنا " .

وأدى النشاط الظاهر فى عملية تهجير اليهود السوفيت إلى إسرائيل- إلى تعقيدات من نوع آخر، فقد بدأ يثير انتباه العالم العربى ، والأردن بالتحديد ، وقد زادت مخاوفه من أن تكون هجرة اليهود السوفيت إلى اسرائيل على حسابه، فتضيق الأرض الموعودة بالقادمين إليها، ويشتد الزحام إلى درجة الانفجار، ولا يكون هناك بديل عن ترحيل سكان الضفة الغربية وغزة والعرب الذين اختاروا الإقامة فى إسرائيل بعد سنة ١٩٤٨ - إلى الأردن ليكون وطنا بديلا للفلسطينيين، وحتى تصبح إسرائيل من النهر إلى البحر دولة يهودية صافية .

وكان القلق العربى يتخطى حدود الأردن، ويصل فى تأثيره إلى إحراج الولايات المتحدة فى علاقات القرب الوثيق بين واشنطن ، وبين معظم عواصم العالم العربي ، ذلك أن إسرائيل راحت تطالب بزيادة فى المعونات، تليها زيادة فى التسهيلات بهدف استيعاب هجرة اليهود السوفيت ، وكان ذلك محرجا للولايات المتحدة .

وكانت الولايات المتحدة ترى أن الاتحاد السوفيتى يحزم حقائبه من المنطقة تاهباً لرحيل كامل عنها، وخطر لها- ضمن ما خطر- أن الفرصة مهيأة لوضع المنطقة بأسرها ، وجملة واحدة ، داخل إطار أو أسار سلام أمريكى . وراحت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تتخذ لنفسها خطا متعرجا

أثار قلق إسرائيل، وفاض القلق فتخطى موضوع الهجرة ، وطرح نفسه على قضية التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط بكاملها .

------- ٢ ---------------------------

وطرأ فى ديسمبر ١٩٨٨ حدث استثنائى زاد من شعور إسرائيل بالقلق . ذلك أن الجمعية العامة للأمم المتحدة انتقلت بكامل هيئتها إلى جنيف لتسمع خطابا من السيد " ياسرعرفات " . وكان ذلك المشهد تتمة لخطوات سبقته منذ بداية السنة .

كانت الانتفاضة الفلسطينية قد طرحت بطريقة ملحة على المجتمع الدولى ضرورة الاقتراب من القضية الفلسطينية. وفى الواقع فإن هذه القضية كانت قد توارت عن الاهتمام منذ توقيع اتفاقية " كامب دافيد " . ولم يكن اهتمام العالم الخارجى وحده هو الذى تحول عن القضية الفلسطينية، وإنما كان العالم العربى نفسه قد فقد تركيزه فى زحام المقترحات والمشروعات والصيغ . وزاد من الإحساس بالضياع أن التفكير السياسى الجديد للرئيس السوفيتي " ميخائيل جورباتشوف " راح يتكشف مع كل يوم ، ويقنع أطرافا متعددة أن أولويات الاتحاد السوفيتى قد تغيرت ، وأن القيادة الجديدة مهتمة بالسياسة الداخلية لبلادها ، وتعتبر نفسها دولياً منسحبة من السباق أمام الولايات المتحدة . وكانت تلك صدمة لكثيرين في العالم الثالث اعتبروا الاتحاد السوفيتى عنصرا رئيسيا فى حساباتهم . ومع أن شواهد الانسحاب كانت بادية من السبعينات - إلا أنها الآن تحولت إلى سياسة معلنة يسمعها الكل ، وأولهم الولايات المتحدة التى بدأ يترسخ لديها يوما بعد يوم أنها فى فترة ليست بعيدة سوف تجد نفسها منفردة بإدارة شئون العالم ، والفصل فى قضاياه . ووسط هذا الضياع اندلعت شرارة الثورة في الأرض المحتلة، واضطر الكل أن يلتفتوا إلى ما يجرى هناك .

وقد أحست القيادة الفلسطينية التى أرهقتها حالة الضياع - أنها الآن فى وضع يسمح لها بمرونة في مواقفها، علها تفتح الطريق أمام امكانية حل للقضية الفلسطينية تقول الولايات المتحدة الأمريكيه إنها قادرة عليه بشروط ، ويطالب قسم كبير من العالم العربى بإعطاء فرصته للولايات المتحدة . كما أن غياب الأتحاد السوفيتى عن الساحة نقل الأمر كله من موقف اختيار إلى موقف اضطرار. وأضيف إلى تلك العناصر كلها عنصر هام ، ذلك ان الانتفاضة تعطى لمنظمة التحرير غطاء معقولا للحركة السياسية ، فإذا لم تنتهز المنظمة هذه الفرصة وتراجعت الانتفاضة أمام بطش الإرهاب الإسرائيلى- إذن فإن المنظمة سوف تكون بلا قاعدة ، وأيضا- بمجمل الأوضاع العربية والدولية - بلا قضية .
وفي نوفمبر ١٩٨٨ انعقد مؤتمر وطنى فلسطينى خاص انتهى إلى القبول بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ أساسا لحل سلمى . وكان ذلك تنازلاً كبيرا أقدمت عليه منظمة التحرير. وقد كان مؤلماً بمقدار ما هو كبير . فإن " ياسر عرفات " كان هو بنفسه القائل منذ سنوات : " تقطع يدي ، و لا أوقع على القرار ٢٤٢ "، وفى الليلة التى وافق فيها المؤتمر الوطنى الفلسطيني على هذه التنازلات - راح يشرح موقفه بحجتين - كل منهما صحيحة :

o إنه وافق على هذه التنازلات لأن شعب ثورة الحجارة فى فلسطين لابد له من أرضية سياسية تعزز موقفه . فالقيادة الفلسطينية فى الخارج لا تستطيع أن تكتفى بتحريضه على المقاومة دون أن تتبع هذه المقاومة بعمل سياسى يواكبها، ويعطيها نقطة وصول تبدو آمنة وممكنة .
o واما حجته الثانية، فكانت أنه وافق على ما وافق عليه من تنازلات لكى تقتنع الدول العربية أن الفلسطينيين ليسوا العقبة فى طريق السلام ، وإنما العقبة الأساسية هي إسرائيل مهما قدم لها الفلسطينيون من تنازلات - الا أن يسلموا لها بكامل التراب الفلسطيني . واذن ، فإنه كان يقدم هذه التنازلات للعرب وليس لإسرائيل .

وربما كان فى ذهن " ياسر عرفات " بعد ذلك تفصيلات ما رآه وسمعه في موسكو ، وفي غيرها من عواصم أوروبا الشرقية . وبالتالي فإنه لا يملك إلا أن يتوجه في محاولاته إلى السياسة الأمريكية ، ومهما كانت شكوكه في نواياها نتيجة لتجربة ممتدة ومريرة .

والغريب أن الولايات المتحدة التي كان " ياسر عرفات " الآن يستجيب لمطلبها الرئيسي ويعترف بالقرار ٢٤٢ ، بما يعنيه من الاعتراف بإسرائيل ، ويستجيب أيضاً لمطلبها الفرعي في نبذ الإرهاب – كانت هي نفسها التي رفضت أن تمنحه تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة ، لكي يقدم هذه التنازلات إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وهكذا كانت الولايات المتحدة تتصرف مستهينة بما سبق أن طلبته هي من الفلسطينيين ، ومستهينة كذلك باتفاقية " المقر " التي تلزم الولايات المتحدة بمراعاة حصانة خاصة للأمم المتحدة وأعمالها ، وضمن بنودها أنها لا تستطيع أن تحجب تأشيرات الدخول إليها عن وفود الدول الأعضاء وممثليها وقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، مع احتجاجها على التعسف الأمريكي ، أن تنتقل بكامل هيئتها إلى المقر الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف ، لكي تسمع " ياسر عرفات " هناك – ما دام قد استحال عليها أن تسمعه في نيويورك .

وفي حين اهتم العالم بما قاله " ياسر عرفات " في جنيف ، حتى أن الولايات المتحدة اعتبرته أساساً ممكناً يسمح لها بإجراء حوار مباشر مع منظمة التحرير الفلسطينية – إلا ان إسرائيل لم تسمع ، ولم تكن تريد أن تسمع . فقد كانت حالة القلق الداخلي مازالت مستبدة بها .

-----٣-----------------------

وفي بعض الدول العربية المعتدلة – كما يسمونها – لم يكن اللوم موجهاً لإسرائيل ، وإنما اقتصر اللوم على المتشددين وحدهم ، وفي مقدمتهم – حسب ما شاع وقتها – حزب الليكود الذي يرأسه " اسحاق شامير " . ومن المفارقات ان بعض هذه العواصم العربية المعتدلة راودها في وقت من الاوقات تصور بأنه إذا نجح حزب العمل برئاسة " شيمون بيريز " في الانتخابات ، فإن الصورة يمكن ان تتغير ، ويتغير معها الموقف الاسرائيلي الجامد والمعاند . وكان أن انشغلت عواصم عربية- بينها القاهرة- بتحسين الفرص الانتخابية أمام حزب العمل، وأمام زعامة " شيمون بيريز".
وكان الرهان على " بيريز" خاسرا منذ البداية، ومع ذلك فقد كان هناك من زادوا رهانهم عليه أملا فى مضاعفة المكاسب - وذلك منطق المقامرة - وكان أن فعلوا كل ما قدروا عليه وزيادة لتحسين

موقفه . وفى فترة من الفترات وقع فى وهم البعض أنهم يلعبون دورا فى السياسة الداخلية الإسرائيلية ، ومن الإنصاف القول بأن عددا من الساسة الاسرائيليين كانوا يشجعون على مثل هذه التوجهات .

ولم يكن واضحا بالضبط من يستغل من؟ ومن يلعب بمن على موائد القمار، أو بعيدا عنها ؟

ولكن قيمة الرهان ظلت ترتفع ، والأمل فى المكسب ظل يراود كثيرين .

وفى بعض العواصم العربية كانت ألعاب الرهان انطباعية ، وفى عواصم عربية أخرى كان الرهان على أساس حساب احتمالات أدق ، وان لم تصل هذه الحسابات إلى نتيجة .

كان الملك " الحسن " ملك المغرب فى وضع فريد يسمح له بمتابعة ما يجرى فى إسرائيل متابعة دقيقة . ففى يوم من الأيام كانت الجالية اليهودية فى المغرب جالية كبيرة ومؤثرة ، وقد ارتبطت حياتها بحياة المسلمين فيه منذ خروج الاثنين معا من الأندلس بعد سقوطه واستسلام آخر قلاعه فى غرناطة. ولم يقف العرش المغربى فى أى وقت من الاوقات ضد هجرة من شاء من يهود المغرب إلى إسرائيل ، بل تمت هذه الهجرة بالرضا وبطريقة شبه مفتوحة . ومن نتيجة ذلك أن اليهود المغاربة الذين هاجروا إلى إسرائيل ظلوا على علاقة - بشكل ما- مع المغرب ، وبالذات مع العرش . وكان الملك " الحسن " يقول : " انه السياسي العربي الوحيد الذى له حزب سياسي فى اسرائيل " . وإلى درجة معينة كان هناك أساس لمثل هذه المقولة خصوصا بين اليهود " السفارديم " (الشرقيين) ، ومن أبرز ساستهم الآن " دافيد ليفي " وزير خارجية اسرائيل الحالي .

ولم يخف الملك صلاته بالساسة الإسرائيليين " بل إنه استقبل " شيمون بيريز " رئيس الوزراء قبل سنوات ، وكانت الزيارة معلنة ، وأثارت على الملك عاصفة من النقد ، وكان رده : " إذا كانت هناك فرصة لتحقيق السلام ، فإنني سوف أتابعها " .

وعندما انهارت حكومة الأئتلاف الإسرائيلى فى يونيو ١٩٩٠ تلقى الملك " الحسن " رسالتين : إحداهما من " شيمون بيريز " ، والثانية من " اسحاق شامير " . وكان في نص رسالة " بيريز " قوله : " إنني آمل ألا يطرأ على بالكم أن خروجنا من الوزارة يعني انتهاء تأثيرنا على السياسة الاسرائيلية ، فأنتم تعلمون ولاشك أن هناك لجنة رباعية تنسق الخطوط السياسية. بين الحزبين الكبيرين فى إسرائيل ، وبالتالى فإننى آمل أن نظل على اتصال حتى رغم خروج حزبنا من الوزارة. " **(وكانت لجنة التنسيق الخاصة التى أشار إليها ، بيريز، فى خطابه هى تلك اللجنة التي تضم " بيريز " ورابين " عن حزب العمل و " شامير " و " آريتز " عن تكتل الليكود) .**

وأما رسالة " اسحاق شامير " - الذى تولى رئاسة الوزارة - فقد كانت متأثرة بفنون العلاقات العامة، واستغرقت أربع صفحات . وجاء فيها قول " شامير" : " انني اعرف أن الصورة التى ترسمها لى وسائل الإعلام العربى هى صورة كئيبة ، فهى تظهرني كرجل شديد التعصب، وهذه الصورة ليست صحيحة " . ثم يمضى " شامير" فى رسالته ، فيروي تفاصيل معاناته ومعاناة أصدقاء له، وأقارب فى ظروف " الجحيم " الذى سيق إليه اليهود فى أوروبا . ثم يصل ليقول " إنه رجل يعرف معنى الألم ، وقد عاشه فى تجربته ، ويستطيع أن يشعر به لدى الآخرين . ثم إنه رجل

حمل معه حلما بأمه وبدولة ، وهو أيضاً على استعداد لفهم أحلام الآخرين ومنهم الفلسطينيون . ثم يضيف : " إننى أعرف أنكم قد تكونون غاضبين منا بسبب ما ينقل إليكم عن تصرفنا إزاء الانتفاضة الفلسطينية . ودعني أؤكد أننا نفهم أحلامهم ولا نعترضها - ان تحققت خارج وطننا: اسرائيل . "

ومن وجهة نظر عملية ، فإن موقف " شامير" كان على الأقل واضحا حتى وإن بدا الصدام معه محققا. وأما فيما يتعلق بـ " بيريز" فإن القضايا كانت دائما عائمة فالرجل غير قادر على تحديد موقفه بطريقة كاملة ، كما أنه لايملك الجاذبية الشخصية أو الفكرية التى تجعله مقنعا أمام الآخرين . ومع ذلك فإن الاتجاه العربى الرسمى راح يخدع نفسه ، ويتعلق بوهم أن وجود " بيريز " رئيسا لوزراء إسرائيل أفضل للعرب بكثير من وجود "شامير".

وفى أواخر السبعينات، وأوائل الثمانينات كثرت فى القاهرة ظاهرة الخطوط الساخنة المباشرة مع القدس . وظهرت فى تلك الفترة على الأقل خمسة خطوط مباشرة ، ويذكر أحد الساسة العرب أنه كان جالسا مع أحد كبار المسئولين المصريين ، فإذا جرس التلفون يدق والمسئول المصرى الكبير يرفع السماعة، ويرحب بمحدثه مباشرة قائلا له : " هالو شيمون " .

كان الكل يريد مساعدة " شيمون " . ثم إن الخطوط الساخنة- أعطت لأصحابها الإحساس بامكانية التأثير، كما أشاعت وهم النفاذ فى السياسة الإسرائيلية . ولقد كان لدى عدد من الساسة الأمريكيين نفس الوهم عن امكانية التأثير فى السياسة الإسرائيلية، لكن الأمريكيين كان لديهم- بسبب مواردهم الاقتصادية وغلبتهم السياسية وتفوقهم العسكرى - سبب أو أسباب عملية تستند إليها الأوهام . وأما بالنسبة للعرب، فإن الأوهام كانت غير مبررة على الإطلاق .

ولقد ضاعف من شعور الإسرائيليين بالقلق والعصبية أنهم وجدوا استثماراتهم السياسية والعسكرية فى ايران أثناء الحرب مع العراق - عاجزة عن تحقيق مراميها بعد انتهاء الحرب . فقد باعوا السلاح لطهران، وشاركوا مع الولايات المتحدة فى فتح جسور للاتصال مع عناصر على قمة السلطة فى الجمهورية الاسلامية، ومع ذلك فإنه ما كانت مدافع الحرب تسكت حتى تجلى موقف الثورة الاسلامية من إسرائيل عدائيا، كما كان من قبل وأكثر . فقد أدرك الإيرانيون أن الموقف الإسرائيلى خلال الحرب لم يكن إلا نوعا من الانتهازية السياسية مارستها إسرائيل . ولم تكن إسرائيل على استعداد لأن تنسى الموضوع برمته وتعتبر مغامرتها الإيرانية وكأنها لم تكن . ولذلك فقد ظلت تحاول الاقتراب من أبواب طهران الظاهرة والخفية ، ولكن الإيرانيين حددوا موقفهم بطريقة قاطعة وراء القضية الفلسطينية.

وإذا كان الموقف الإيرانى قد بدا غير مفهوم فى المنظور الإسرائيلي - فلم يكن ذلك الموقف هو اللغز الوحيد . كان هناك أيضا لغز الملك " حسين " . وكانت إسرائيل تظن " أنها " أخذت مقاس الملك " ، وعرفت حدوده . لكنه الآن راح يتصرف بطريقة خارجة عن المألوف من سابق تصرفاته . وكان أمر الفيلق الأردنى- العراقى المشترك محيرا بالنسبة لإسرائيل ، فلم تكن المقاصد وراء إنشاء هذا الفيلق مفهومة، ولا كان واضحا أيضا السبب الذى دعا الملك إلى السماح للعراق بإنشاء عدد من قواعد الصواريخ على حدوده مع العراق مباشرة مما يجعل مداها واصلا لإسرائيل ، ولمفاعلها النووى فى ديمونة بالتحديد .

كان فى إسرائيل من يدركون مخاوف الملك من الدعوات المتصاعدة من جانب بعض الساسة الإسرائيليين تطالب باعتبار الأردن وطنا بديلا للفلسطينيين، ولكن تقديرات الساسة الإسرائيليين كانت تنزع إلى حساب أن مخاوف الملك سوف تجعله أكثر حذرا . ولقد رأوه بدلاً من ذلك يغامر بتصرفات قد تثير ردة فعل إسرائيلية عنيفة ، مع أنه فى الماضى كان يحاذر ويتحوط ضد أى سبب يثير سوء الفهم على الناحية الأخرى من خطوطه مع إسرائيل ، ولا يتوانى عن إرسال إشارات تأكيد الثقة والطمأنينة.

وتشير بعض الدلائل إلى أن الحسابات الإسرائيلية لموقف الملك " حسين " في ذلك الوقت راحت تعتبر أن الملك " حسين " راهن على احتمالات القوة العراقية مدفوعاً إلى ذلك باحساس مزدوج: ضغوط المخاطر التى تحيط بمملكته من ناحية – وإغراء المكاسب التي تتحقق للأردن من علاقة اقتصادية خاصة مع العراق ، فقد تحولت مملكته أثناء الحرب مع إيران إلى قاعدة خلفية لتموين المجهود العسكرى العراقى حين أصبح ميناء العقبة هو المنفذ الوحيد على البحر، والمخزن الجاهز لاستقبال شحنات الغذاء والسلاح من العالم الخارجي .

وهناك شواهد أخرى تشير إلى أن الملك " حسين " قبل بوجود قواعد للصواريخ العراقية على حدود بلاده ، لأن ذلك كان لازما لحماية الامكانية النووية العراقية التي راحت تثير مخاوف القيادة الإسرائيلية فى ذلك الوقت .

------٤----------------------------

كانت إسرائيل قد وجهت ضربة شديدة إلى المفاعل النووى العراقى (" أوزيراك ") سنة ١٩٨١. ثم عرفت المخابرات الإسرائيلية أن العراقيين استطاعوا انقاذ ١٢.٣ كيلو جرام من الـ " يورانيوم ٢٣٥ " والمخصبة بنسبة ٩٣% . وفى ذلك الوقت ذكر تقرير للجنة القوات المسلحة فى الكونجرس أن هذه الكمية من اليورانيوم المخصب تكفى لصنع قنبلة ذرية واحدة إذا استطاع العراقيون الحصول على التكنولوجيا المتقد مة اللازمة لتحويلها إلى قنبلة . ومع أن الوكالة الدولية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة فى فيينا قامت بالتفتيش أكثر من مرة على الامكانيات النووية العراقية، ونشرت تقارير متعددة- آخرها سنة ١٩٨٨- تقول فيها إنها لم تعثر على دليل يوحى باستخدامات عسكرية للمشروع النووي العراقى- فإن مخاوف الإسرائيليين لم تهدأ . فوجود هذه الكمية من اليورانيوم المخصب كان إغراء لا يقاوم ، كما أن " الموساد " كانت قد توصلت إلى معلومات وافية من مصادر مختلفة عن وجود برنامج نووى عراقى طموح .

والغريب أن إسرائيل نفسها كانت تملك امكانية نووية محققة فى مخازنها ، وليست امكانية محتملة على أوراق المشروعات، كما هو الحال بالنسبة للعراق . ولم يكن هناك شك حول حجم المخزون النووي الإسرائيلى . فإن أحد الخبراء الإسرائيليين ، وهو " موردخاي فانونو " أفشى كل الأسرار ودعمها بالصور والرسوم لصحيفة الـ " صنداى تيمس " البريطانية . وفى الواقع فإن إسرائيل أكدت معلومات " فانونو " عندما قامت المخابرات الإسرائيلية (" الموساد ") بخطفه ونقله إلى إسرائيل حيث حوكم، وصدر عليه حكم بالسجن مدى الحياة بتهمة الخيانة ، وإفشاء أسرار عسكرية محظورة.

ومع ذلك فإن إسرائيل كانت قلقة من احتمالات المشروع العراقى، لأن واحدا من أهم مطالبها الأستراتيجية هو احتكار القوة النووية فى المنطقة . وبشكل ما فإن اسرائيل ربطت هذه المخاوف بالتقارير التى راحت تتواتر فى ذلك الوقت عن امكانيات القوة التقليدية للجيش العراقى . فقد ذكر تقرير لمركز الدراسات الاستيراتيجية التابع لهيئة أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية- فى ذلك الوقت أن المعلومات المتاحة والمؤكدة عن قوة الجيش العراقي حسبتها واصلة إلى ٩٥٥ ألف جندى تحت السلاح ، و ٥٥٠٠ دبابة ، و١٠٠٠ مركبة قتال مدرعة للمشاه ، و ٧١٠٠ ناقلة مدرعة للجنود ، و ٣٠٠٠ قطعة من المدفعية الثقيلة بينها ٥٠٠ قطعة ذاتية الحركة ، و ٢٠٠ قاعدة لإطلاق الصواريخ . وأشار نفس التقرير إلى الامكانيات القتالية للجيش العراقى ، كما تبدت للمراقبين الأجانب – بقوله :

" في ابريل سنة ١٩٨٨، وحين بدأ الجيش العراقى يهاجم على طول الجبهة مع إيران ، رفض بعض المراقبين أن يقبلوا تصديق ما رأوه واقعا أمامهم . ولقد تصوروا أن العراقيين سوف تنفد طاقتهم بسرعة من حجم المجهود الذى يبذلونه، ثم ينكشف عجزهم عن مواصلته . فقد كان أمرا غير قابل للتصديق أن يمتلك الجيش العراقى مقدرة الهجوم بهذه السرعة . وعندما تأكد أن العراقيين فى طريقهم للنصر راحت بعض النظريات تبحث عن تفسير لهذه الظاهرة الاستثنائية ، وقيل إنهم اعتمدوا على الأسلحة الكيماوية. وكان هناك تفسير آخر هو أن العراقيين اعتمدوا فى هذه المرحلة الحاسمة فى الحرب على المصريين أو السوفيت . إن اختبار كل الشواهد والأدلة وراء هذه الظنون أظهر أنها جميعا غير مقنعة . "

ولقد خلص التقرير. إلى أن العراقيين كانوا مقاتلين أفضل مما تصورت الأطراف الأخرى . مع أن الحرب فى الخليج أظهرت مبالغات شديدة فى القوة العسكرية العراقية- فإنه في المنظور الإسرائيلى، وفى حينه، كانت هذه التقارير والتقديرات مصدر تشاؤم حقيقي لإسرائيل . ولم يكن الاهتمام بالقدرة العراقية - كما صورت فى ذلك الوقت - مقصوراً على الإسرائيليين ، بل إن وزير الخارجية السوفيتى " ادوارد شيفرنادزه " وقف في فيينا سنة ١٩٨٩ يقول أمام اجتماع من اجتماعات مؤتمر الأمن الأوروبى ما نصه : " لابد أن نلتفت إلى أنه توجد على حافة أوروبا ، ولصيقة بها ، ترسانة حربية هائلة يجري إعدادها . فهناك ٢٥ ألف دبابة ، و ٤٥٠٠ ألف طائرة – على استعداد للصدام مع بعضها فى أى وقت فى الشرق الأوسط . وهناك مخاطر حقيقية من امكانيات أسلحة كيماوية ونووية تكمن فى تلك المنطقة . لقد بدأت تظهر هناك صواريخ يصل مداها الى ٢٥٠٠ كيلومتر . وعلينا أن نستنتج من ذلك ما لابد من استنتاجه ، وهو أنه لا يمكن أن يدور كلام عن نزع السلاح فى أوروبا بدون أن يتماشى مع ذلك نزع للسلاح فيما حولها. " - وكان ذلك سببا اضافيا آخر لمخاوف اسرائيل ، فهى آخر طرف في الشرق الأوسط يناسبه الحديث عن نزع

السلاح أو عن تحديده . فالقوة العسكرية بالنسبة لإسرائيل هى الضامن الوحيد لأمنها، بل لوجودها فى حد ذاته.

ولقد كان مزعجا لإسرائيل بعد هذا كله وفوقه ، أن تكتشف أن حلمها الكبير في السلام مع مصر لم يحقق نتائجه. فالتطبيع يتعثر فى العلاقات بين البلدين . والانبهار الذي ساد فى المرحلة الأولى من الصلح المنفرد يبهت بريقه فى مصر. وأكثر من ذلك فإن صوت الرصاص الموجه إلى الإسرائيليين يسمع فى البلد العربى الوحيد الذى عقد معها صلحاً منفردا، ولا يسمع فى أى بلد عربى آخر.

ففى أكتوبر ١٩٨٥ أطلق الجندى " سليمان خاطر " من موقعه فى " رأس بركة " قرب طابا رصاص مدفعه الرشاش على مجموعة من الإسرائيليين فقتل سبعة . وبعد الحكم عليه وجد " سليمان خاطر " مشنوقا فى زنزانته ، وصدر تقرير رسمى يقول أنه انتحر بشنق نفسه . وسرت إشاعات تقول إن المخابرات الإسرائيلية (" الموساد ") وصلت إليه فى سجنه، ونفذت فيه حكما بالإعدام .

وفى فبراير ١٩٩٠ تعرض أوتوبيس سياحى إسرائيلى لإطلاق النار عليه ، مما ادى إلى مقتل ٨ من ركابه الإسرائيليين وجرح ١٧، وكان ذلك على الطريق من الاسماعيلية إلى القاهرة . ولم يعثر لمرتكبى ذلك الحادث على أثر.

وفى نوفمبر ١٩٩٠ أطلق الجندى المصرى " أيمن حسن " وهو من قوات الحدود نيران مدفعه الرشاش على أوتوبيس إسرائيلى آخر فى منطقة " رأس النقب " ، وقتل خمسة من الإسرائيليين وجرح ٢٧.

وكانت هذه الحوادث فى حد ذاتها مقلقة ، ولكن المناخ الذى أحاط بها جاء أشد إثارة للقلق . وأبدت اسرائيل امتعاضها من أن " أيمن حسن " خرج بعد محاكمته بعقوبة لاتزيد على ١٢ سنة من السجن . وكان تقدير المجلس العسكرى الذى حاكمه أن " أيمن حسن " قام بعمليته تحت استفزاز قدرته المحكمة، وراعته فى الحكم المخفف الذى صدر عليه .

كانت إسرائيل أيضاً قلقة من انها لم تستطع النفاذ داخل قطاعات من المجتمع المصري ، تصورت فى البداية أن النفاذ فيها ممكن والمجال مهيأ . وكان أبرز هذه القطاعات فى التقدير الإسرائيلي هو المجتمع القبطى فى مصر. ثم أثبت أقباط مصر ، بصلابة وحزم وحدة المجتمع المصري مسلمين واقباطاً . فبابا الأقباط ، البابا " شنودة الثالث " ظل على موقفه الثابت فى منع الحجاج الأقباط من الذهاب إلى القدس قبل الوصول إلى تسوية مرضية . ولم يترك لدى أى طرف فرصة يمكن النفاذ منها بين عنصرى الشعب المصري .

وفى لقاء بين البابا " شنودة " والرئيس الأمريكى السابق " جيمى كارتر "- سنة ١٩٨٩ – قال "كارتر " للبابا " شنودة " : " أليس صحيحاً ياصاحب القداسة ان اليهود هم شعب الله المختار ؟ " – وكان رد البابا " شنودة " : " ياصاحب الفخامة ، إذا كانوا هم شعب الله المختار، فمن نكون نحن؟ – ثم استطرد البابا " شنودة " يقول : " ربما استطاعوا أن يصفوا أنفسهم أنهم شعب الله المختار حين بدأت بهم ديانات التوحيد وجاءهم أول كتاب سماوى (يقصد التوراة) – أما بعد مجىء السيد المسيح وبعد الانجيل ، فإن ذلك الامتياز لم يعد لهم . "

وكانت الانتفاضة فى الأراضى المحتلة تتصاعد يوما بعد يوم ، وتتزايد أسباب القلق فى إسرائيل .

الفصل التاسع

القرن الواحد والعشرون

" من المحتم على الولايات المتحدة أن تدير شئون البترول فى العالم، حتى خارج حدود سيادتها الاقليمية وخارج قيود القانون الدولي" .
[جورج والدن ، رئيس مجلس إدارة شركة " سوكوني فاكوم ، فى شهادة أمام الكونغرس فى نوفمبر ١٩٤٥) .

-----١---------------------------------

وقف الرئيس الأمريكى (جورج بوش ، يوم ٢٤ يناير ١٩٩٠ على منصة الكونجرس يلقي الخطاب التقليدى السنوى الذى يقدمه كل رئيس أمريكى فى بداية كل عام إلى الأمة، وهو الخطاب المشهور باسم " حالة الاتحاد " - وكان أهم ما قاله " جورج بوش " فى هذا الخطاب هو قوله بالنص : " إن الولايات المتحدة تقف على أبواب القرن الواحد والعشرين ، ولابد أن يكون هذا القرن الجديد أمريكيا بمقدار ما كان القرن الذى سبقه- وهو القرن العشرون - قرنا أمريكيا. "

ولم يكن هناك مجال للشك لدى كل من سمع هذه العبارة على لسان " جورج بوش " في حقيقة ما تعنيه بالنسبة لأوضاع القوة فى العالم . لقد كان القرن العشرون أمريكيا نتيجة لعصر البترول - فإذا كان مطلوبا أن يكون القرن الواحد والعشرون أمريكيا ، فمعنى هذا - بدون لبس - أن القرن الواحد والعشرين يستحيل أن يكون قرنا أمريكيا إلا إذا تحققت للولايات المتحدة الأمريكية سيطرة كاملة على البترول .

وكان " هارولد ايكس " وزير الداخلية الأمريكى والمختص الأول بشئون البترول فى فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها - هو صاحب القول المأثور بأن " البشرية صنعت تطورها الهائل إلى الحضارة عبر عصور " حددها " هارولد ايكس " على النحو التالي : " العصر الحجرى - العصر البرونزى - العصر الحديدى - وأخيرا عصر البترول " **[تقرير " هارولد ايكس " إلى الرئيس الأمريكي ، فرانكلين روزفلت ، بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٤٣] .**

ثم كان " هارولد ايكس " هو الذى أضاف بهذا التحليل لعصور التاريخ حكمه النهائي القائل بأنه : " بدون البترول فإن الولايات المتحدة الأمريكية بالشكل الذي نراه الآن لم تكن ممكنة قط " .

وتلك مقولة سليمة، فقد كان البترول هو المحرك الجبار للقوة الأمريكية التي برزت فى نهاية القرن التاسع عشر، وتقدمت إلى قيادة العالم حتى بلغت أوج صعودها عند منتصف القرن العشرين . وكان البترول الذى اكتشف أول ما اكتشف وتم تطويعه للاستغلال الصناعى والتجارى- منتجا أمريكيا. وأصبح هو صانع الرخاء وقت السلام ، وضامن النصر وقت الحرب . وهذه حقيقة لم تعد موضوعا للمناقشة، ولا داعية لطول الجدل .

ولقد تحققت للولايات المتحدة موارد بترولية كفتها وزيادة حتى الحرب العالمية الثانية . وفى هذه الحرب فإن البترول الأمريكى كان هو الذى قدم لمسرح العمليات في أوروبا أكثر من ٨٠% من الطاقة اللازمة لانتصار جيوش الحلفاء على " هتلر " . وبعد هذه الحرب فإن الولايات المتحدة التى راح يقلقها الخوف على مواردها ، استطاعت – كما سلف القول - أن تزيح الامبراطورية البريطانية عن امتيازاتها البترولية فى الشرق الأوسط لتحتل هى مكانها، وتلك هى العملية التى وصفها " ونستون تشرشل " رئيس وزراء بريطانيا في خطاب شهير له موجه إلى الرئيس الأمريكى " فرانكلين روزفلت " بقوله : " إنني مضطر أن أصارحك القول بأن سياسة الولايات المتحدة فى مسائل بترول الشرق الأوسط تبدو لكثيرين من زملائى فى مجلس الوزراء محاولة لإرث تركة رجل مازال على قيد الحياة " .

ولم تغير احتجاجات " تشرشل " من الأمر شيئا. فقد انتهى الصراع على بترول الشرق الأوسط حوالى سنة ١٩٥٣- عندما تمت تصفية ثورة " مصدق " في ايران بالتحديد- باستيلاء الولايات المتحدة على معظم الامتيازات البريطانية، ووصلت الولايات المتحدة إلى ذروة القوة فى العالم، وبنلك تحققت بالكامل مقولة إن القرن العشرين " كان قرناً أمريكياً " - وكان البترول هو صاحب الفضل . وكان البترول العربى هو صاحب الاسهام الأكبر فى إسداء هذا الفضل . وتكلفت حرب البترول الأولى سنة ١٩٧٣ (وهى حرب أكتوبر أيضا) بإظهار الحقيقة فى دور البترول العربى على نحو خطير، وبالنسبة للبعض مخيف !

إن البترول سلعة مختلفة عن أى سلعة أخرى سبقت فى تاريخ التطور الانسانى، وذلك نابع من حقيقتين رئيسيتين :

الأولى : أن البترول سلعة حيوية لاستمرار الحياة سواء فى السلم ، أو فى الحرب .

والثانية : أن البترول سلعة قابلة للنفاد . فهى لا تتجدد مثل أى سلعة أخرى مما تنتجه الصناعة أو الزراعة، وبالتالى فإن كل استعمال لها هو خصم من مخزونها ، سواء كان كامناً تحت الأرض لم يستكشف بعد ، أو كان اكتشافه قد تحقق - وسواء وجد طريقه إلى الاستهلاك ، أو بقى جاهزا للضخ- أو حملته الناقلات ، أو جرى فى خطوط الأنابيب .

ولقد ترتب على هاتين الحقيقتين الرئيسيتين وضع لم يتوافر لأى سلعة حيوية أخرى في العالم قبل البترول . وانعكس هذا الوضع الفريد للبترول فى نتائج أعطت نفسها قوة الحقيقة ، و بينها :

١- إن البترول سلعة لا يمكن تركها لعوامل السوق بحيث تقوم هذه العوامل بآلياتها التقليدية في تحديد العرض والطلب ، وبالتالى مستويات الانتاج ومستويات الأسعار . بمعنى آخر فإن البترول بطبيعة ظروفه سلعة يحددها الطلب أكثر من أى عامل آخر.
٢- ينبنى على ذلك أنه إذا كان الطلب يحدد الانتاج، فإن الطلب لابد له أيضا أن يحدد السعر . ومعنى ذلك أن نوعاً من الاستقرار يجب أن يسود أسواق البترول ، والا وقعت فوضى فى الاقتصاد العالمى يصنعها، ويتحكم فيها منتجو البترول .
٣- إن الحيوية القصوى لهذه السلعة ترتب حقا ضروريا فيها لكل بلد فى الدنيا يتوازى مع حقه فى الحياة . وهكذا تنشأ إشكالية ضخمة، وهى إشكالية من الذى يشرف على توزيع هذه السلعة ما دامت حيوية بهذا القدر للجميع ، ومع وجود حق لكل دولة فى حصة ضرورية منها .
٤- إن هذه السلعة تحتاج قبل استخدامها فى عجلات الانتاج الى مقدمات وتجهيزات تختلف عما هو لازم لأية سلعة أخرى ، حتى إذا كانت هى الأخرى متصلة بضرورات الحياة . فهذه السلعة لابد أولا من استكشاف مكامن وجودها فى أى مكان فى العالم ، بصرف النظر عن الحدود السياسية- وذلك عن طريق أدوات علمية وتكنولوجية غالية التكاليف وعالية المخاطر. وبعد الاستكشاف تجىء عملية الانتاج، ثم عملية النقل ، ثم عملية التكرير، ثم عملية التوزيع . وهذه العمليات كلها- الى جانب ما تقتضيه من رؤوس الأموال ، والعلم ، والتكنولوجيا - تحتاج فى كل مرحلة منها إلى حماية تؤمنها ابتداء من المكامن الخفية تحت سطح الأرض، الى استخراجها فوق الأرض ، الى محطات الضخ التى تحملها الى مواقع الانتاج ، وحتى إلى محطات البنزين .
٥- إن هذه السلعة تفرض بطبيعتها وجود مخزونات استراتيجية منها لدى كل مستعمل لها، كبيرا كان أو صغيرا- ببساطة لأنها سلعة يصعب تركها تحت رحمة أي طوارىء أو مفاجآت (من ذلك أنها سلعة يصعب نقلها فى الطائرات) والسبب أن البترول ليس سلعة مرنة يمكن زيادة أو خفض استهلاكها ، ولا حتى مؤقتاً استجابة لأي نوع من التقلبات .

وهكذا صدقت النبوءة المبكرة لـ " جورج والدن " الذى كان رئيساً لشركة سوكوني فالكوم " (واحدة من أكبر شركات البترول الأمريكية) – حين قال سنة ١٩٤٥ : " إن إدارة شؤون البترول تختلف عن إدارة شئون أي سلعة أخرى . فإدارة شئون البترول في ٩٠% منها سياسة ، وفي ١٠% منها فقط بترول " !

ثم زاد " والدن " على ذلك قوله : " إذا كان محتماً على الولايات المتحدة أن تدير شئون البترول في العالم ، فإن عليها ان تدرك طوال الوقت بأنها مطالبة بأن تفعل ذلك " حتى خارج حدود سيادتها الإقليمية ، وخارج قيود القانون الدولي " – إذا دعا الأمر . " **[شهادة " جورج والدن " أمام لجنة الاستماع الخاصة للكونجرس حول مشاكل الطاقة يوم ١٤ نوفمبر ١٩٤٥]** .

وبالفعل فإن السياسة الأمريكية فى كل فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تولت إدارة شئون البترول ، وتصرفت فيها طبقا لنفس القانون الذى صاغ " جورج والدن " كلماته ونصوصه.

ومع أن شركات البترول الأمريكية الكبرى تعاملت طوال الوقت فى المنطقة وكأنها دول ، وفى بعض الأحيان كأنها " دول كبرى " - على حد تعبير " روبرت آندرسون " وزير الخزانة الأمريكى فى رئاسة " ايزنهاور " - فإنها حرصت طوال الوقت على أن تظل غير بعيدة عن واشنطن ، ذلك أن واشنطن ظلت السيد المتصرف باستمرار ، وإن اعطت لبعض وكلائها (الشركات الأمريكية الكبرى في هذه الحالة) الحق فى نوع من الاستقلال الذاتي طالما الأحوال طبيعية والريح رخاء!

وبدأ الحال يتغير بعض الشىء عندما أنشئت منظمة " أوبك " التى أقامها المنتجون لمواجهة سيطرة المستهلكين على الأسعار. وكان صاحب فكرتها الجنينية هو وزير البترول الفنزويلي " بيريز ألفونسو " وكان اجتماعها التأسيسى الأول يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٠، ومن المفارقات أنه عقد فى بغداد. كان رأى " بيريز ألفونسو " أنه إذا كان البترول سلعة قابلة للنفاد- وهى حقيقة مؤكدة - إذن فإن الدول المنتجة لابد أن يكون لها رأى فى شئون البترول هى الأخرى .وإذا كانت للمستهلكين مصالحهم التى يتحتم مراعاتها بطبيعة السلعة، فإن المنتجين أيضا لهم حقوق فى سلعة غير قابلة للتجدد . فنضوب مواردها في بلد يؤدى على الفور لمضاعفات قاتلة . ففى حين أن المستهلك قد يستطيع الحصول على طلباته من بلد منتج آخر، فإن البلد الذى تنضب موارده مكشوف بالكامل أمام أحكام الطبيعة، وفى مواجهة القوة الدولية للسيطرة على موارده . كنلك كان " بيريز ألفونسو " يرى أن من حق كل دولة منتجة للبترول أن تستعمل الفرصة المحدودة زمنيا لوجوده فيها لبناء قاعدة للتنمية.

ومن هذه المنطلقات قامت منظمة " أوبك " بدورها على نحو معقول فى الفترة ما بين قيامها سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٧٣، حينما اندلعت حرب البترول الأولى ، ثم قررت الدول العربية استخدام البترول كسلاح فى المعركة ، وانقلبت الموازين ، وامتد انقلاب هذه الموازين على جبهة عريضة . فإن استخدام العرب للبترول كسلاح فى معركتهم أدى إلى وضع المنتجين – كما تمثلهم منظمة " أوبك " (منظمة الدول المصدرة للبترول) ، ومنظمة " أوابك " (منظمة الدول العربية المصدرة للبترول)- فى الوضع الأقوى . ذلك أن الخطوة التى أقدموا عليها أعطتهم السلطة لكى يفرضوا حظرا على تصدير البترول الى دول وجدوها تناصبهم العداء وتقف موقفاً مناهضاً لمطالب لهم مشروعة ، أو أنهم من وجهة نظرهم يرونها مشروعة.

----- ٢--------------------------------

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هى التى تصدت للتحدى من اعتبارين : اعتبار أنها كانت القوة المديرة لشئون البترول فى العالم ، والقوة المستهلكة لأكبر قدر منه فى السلام ، وفي الحرب بنفس الدرجة - ثم اعتبار أنها الدولة التى انصب عليها قبل غيرها قرار الحظر .

وكانت الولايات المتحدة تتصرف إزاء هذا الوضع الطارىء على كل الجبهات : الجبهة السياسية الاستراتيجية من ناحية، والجبهة العلمية التكنولوجية من ناحية أخرى - إلى جانب أى وسيلة من وسائل العمل الظاهر أو الخفى .

كان من أهم بنود الخطة الأمريكية لمواجهة حرب البترول الأولى وآثارها هو البحث عن بدائل جديدة للبترول تستخدم فوائضه فى تمويلها. وفى أعقاب حرب البترول الأولى ، وحتى نهاية حقبة السبعينات كانت عملية البحث على قدم وساق - ولكن النتائج جاءت مخيبة للآمال .

وتكشف فى النهاية أن بدائل البترول التى طرحت للبحث قاصرة عن بلوغ الهدف الذى حاولت تحقيقه :

١- بعض هذه البدائل أثبت أنه غير اقتصادى ، ومن نماذج ذلك محاولات استغلال طاقة الرياح وطاقة أمواج المحيطات . ومن الناحية العلمية كانت الرياح والأمواج مصادر محتملة لطاقة محركة، لكن التكاليف الأقتصادية لتطويع هذا النوع من الطاقة كانت باهظة إلى درجة فرضت تأجيل البحث عن استغلال الطاقة فيها إلى مستقبل غير منظور .
٢- وبعض هذه البدائل أثبت أنه غير فعال، فقد علت فى تلك الأيام صيحة تؤكد أن الكيمياء الصناعية يمكن أن تفتح مجالات كثيرة مغلقة. وقد جرت بالفعل تجارب استعمال الكحول المستخرج من الذرة والشعير كوقود محرك للسيارات- وكانت النتائج هزيلة لدرجة دعت إلى ايقاف البحث فى مجال الكيمياء الصناعية عن احتمال لمصدر طاقة مستقبلى يمكن التخطيط له فى المستقبل المنظور.
٣- وبعض هذه البدائل كان غير مأمون . ومن ذلك مثلا استخدام الطاقة النووية كمصدر للوقود فى مجالات الانتاج السلمية. وقد أثبتت حوادث مثل كارثة " تشرنوبل " أن الطاقة النووية مازالت وحشا مفترسا لم يستطع الإنسان ترويضه حتى هذه اللحظة . وقبل " تشرنوبيل " وقعت حوادث تسرب وتلوث وصلت إلى حد الكارثة على الطبيعة وعلى الناس في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، وإن ظلت " تشرنوبيل " هى الصورة المفزعة العالقة فى الأذهان بسبب حجمها، وبسبب التركيز السياسى والأعلامى الذي ألح عليها .
٤- وبعض هذه البدائل كان غير ملائم . مثل العودة إلى استخدام الفحم على نطاق واسع فى عمليات الانتاج، ذلك لأن الفحم لم يعد يتلاءم مع كل الاعتبارات الجديدة التي سادت عن ضرررات حماية البيئة، ثم إنه خطوة إلى الوراء فى تكنولوجيا الانتاج . فقد كان التقدم الضخم فى هذه التكنولوجيا هو الاستغناء عن انتاج المداخن – كما يسمونه . وكانت كل المجتمعات الصناعية المتقدمة تتخلص منه بأسرع ما يمكن، حتى أن اليابان قامت بتصدير كل ما تملكه من صناعات المداخن إلى كوريا مثلا، لكى تحتفظ لنفسها بأجواء أكثر نقاء ، وطاقة انتاج أكثر كفاءة .

وهكذا قاربت حقبة السبعينات نهايتها واقتربت حقبة الثمانينات والبترول مازال سيدا على مجالات التنمية بأنواعها المختلفة ، وبالتالى حكما أو حاكما رئيسيا فى سياسات عالم هدفه التنمية والسباق على طريقها .

وعند مطالع الثمانينات برزت حقائق مستجدة تؤكد السيادة المطلقة للبترول، ففى الوقت الذى تعثرت فيه كل بدائله إذا الحقائق المستجدة تشير إلى :

١- إن استهلاك الدول الصناعية للبترول يتزايد باطراد بسبب الارتفاع المستمر فى مستويات المعيشة فى الغرب ، وبرغم كل محاولات ترشيد استخدام الطاقة فى المجتمعات المتقدمة فإن مؤشرات الطلب فى صعود دائم، والتوجه باستمرار هو إلى بترول الشرق الأوسط لأن المصادر الأخرى غيره شحيحة رغم كشوف لا بأس بها فى " بحر الشمال " وفي " النيجر " .

وهكذا فإن الولايات المتحدة أصبحت تستورد ٥٠% من استهلاكها الكلى من البترول ، بعد أن كانت مصدرة له فى مرحلة من المراحل ، ومكتفية بانتاجها منه فى مرحلة تالية. وأصبح النصف فيما تستورده الولايات المتحدة من الخارج ذاهبا إليها من الشرق الأوسط ، ومن الخليج بالذات .

وأما اليابان وأوروبا الغربية ، فقد وصل اعتمادهما على بترول الشرق الأوسط إلى أكثر من ٩٠%، وكان معظمه أيضا من الخليج بالذات .

٢- إن الاتحاد السوفيتى الذى كان واحدا من أكبر مصدرى البترول يتراجع فى معدلات انتاجه ، ثم إن الدراسات تظهر أن الاتحاد السوفيتى قد يتحول إلى مستورد للطاقة ، وفي أحسن الأحوال مكتف بموارده على شرط ألا تتجاوز طموحاته فى التنمية حدود أوضاعها الراهنة .
٣- فوق ذلك بدت على الأفق مطالب " العمالقة النائمين " وهم مجموعة الدول الكبيرة ذات الكثافة السكانية العالية، والمتجهة إلى التنمية حديثا، والتى كانت تعتمد فى حاجاتها للطاقة على مصادر بدائية مثل الفحم والخشب أو غيرهما . فبلاد مثل الصين والهند متجهة إلى مراحل فى التنمية متقدمة، وسوف تتزايد معدلات التنمية المستهدفة لديها في العقود الثلاثة القادمة ، ومع زيادة التصنيع فإن طلب هذه الدول على البترول سوف يشكل عنصر ضغط إضافيا على أسواقه.
٤- وغير العمالقة، هناك مطالب التنمية الطبيعية للدول العادية الحجم والعادية الطموح، وهى جميعا تشترك فى مطلب واحد هو مطلب التنمية الصناعية، وان تفاوتت أحجام المطالب من بلد لآخر، أو من قارة لأخرى .

كانت الأرقام تقول إن الدول الصناعية المتقدمة تستهلك ٧٥% من بترول العالم . وأما الدول النامية فإنها تستهلك الباقى، أى بنسبة ٢٥% فقط .

وأما الآن فالأرقام والتوقعات تشير إلى جديد لا يمكن دفعه ويصعب تأجيله ، وهو أن استهلاك " العمالقة النائمين " وغيرهم من الدول النامية، سوف يزيد فى الثلاثين سنة القادمة بنسبة الضعف على الأقل، ومعنى ذلك أن المنافسة على البترول سوف تكون قاسية وخطرة فى القرن الذى يلوح فجره ، بأكثر مما كانت قاسية أو خطرة فى القرن الذي أوشكت شمسه على الغروب!

------- ٣---------------------------

نتيجة ذلك أن منطقة الشرق الأوسط ، والعالم العربى فى قلبها، تتعاظم أهميتها مع بداية عقد التسعينات، ذلك لأن المنابع التقليدية للبترول فى العالم تجف أو تخف ، بينما منابعها هى تزيد وتفيض .

وبينما تقول الاحصاءات إن بقية المنابع التقليدية للبترول فى جنوب الولايات المتحدة ، وفى القوقاز، وفى جنوب شرق آسيا - تتراوح مدة عطائها الباقى إلى مابين ٢٥ أو ٣٠ سنة، فإن بترول منطقة الخليج أمامه- على نفس معدلات الإنتاج الحالية - ما بين ٥٠ إلى ٧٠ سنة، ثم إن كل الاكتشافات الجديدة المؤثرة فى مجال البترول تكاد تنحصر فيها إلى درجة أنها تحتوى فى باطنها الآن على ما بين ٦٠% إلى ٦٥% من الاحتياطيات المحققة للبترول فى العالم .

والواقع أن نظرة على تركيبة منظمة " أوبك " تكشف على الفور أن أغلبية أعضائها هم المنتجون العرب للبترول . فهناك : السعودية - الكويت- الإمارات - البحرين- قطر- عمان (ست من دول الخليج)- ثم العراق والجزائر- وبعد ذلك يجىء الباقون : أندونيسيا - كولومبيا- الإكوادور- الجابون- فنزويلا. والمجموعة العربية وحدها " تمثل أغلبية عددية هي : ٨ إلى ٥ ، وهى أغلبية يتصاعد وزنها عندما تنتقل النظرة من عدد الدول إلى حجم انتاجها . فالدول العربية المصدرة للبترول تنتج أكثر من ثلثى بترول الأوبك طبقاً لنظام الحصص المتفق عليه ، ولو رفعت القيود التى يفرضها نظام الحصص، لزادت النسبة إلى أكثر من ثمانين فى المائة لصالح البترول العربى .

وإذن فإن منطقة الخليج هى المنطقة المؤثرة مباشرة فى القرن الواحد والعشرين، وعلى أرضها يتقرر شكل هذا القرن وهويته .

ومن نتائج الطلب المتسارع على البترول- مع غياب بدائله وزيادة استهلاكه والتسابق على موارده - أن أسعاره معرضة للزيادة ما لم تتدخل عناصر خارج حركة السوق لتفرض إرادتها، كما حدث وكما يحدث .

وتظهر دراسة قامت بها وزارة الطاقة فى الولايات المتحدة ، ونشرت نتائجها سنة ١٩٨٨، مجموعة الحقائق التالية :
١- إن انتاج دول " اوبك " الذى بلغ حجم صادراته ١٧ مليون برميل فى اليوم ، لابد أن يصل سنة ١٩٩٠ إلى ما بين ٢٤- ٢٦ مليون برميل فى اليوم، والسبب هو زيادة الطلب إلى جانب نزول مستويات الانتاج فى " بحر الشمال " (السعر الآن ١٨ دولاراً للبرميل) .
٢- إن أسعار البترول- إذا ترك الأمر لعوامل السوق وحدها- لابد أن تبدأ فى الارتفاع إلى ٣٦ دولاراً للبرميل الواحد قبل حلول عام ١٩٩٥.
٣- إنه مع سنة ٢٠٠٠ لابد أن ترتفع أسعار البترول إلى ٧٥ دولاراً للبرميل الواحد
٤- إنه مع سنة ٢٠١٠ لابد أن يرتفع سعر البترول إلى ١١٠ دولارات للبرميل الواحد .

وهذه الزيادات كلها عبء يصعب على اقتصاديات العالم أن تجاريه.

لكن المشكلة يظل لها جانب آخر، وهو الفوائض المالية.

إن دول الخليج المنتجة للبترول كلها دول ذات طابع خاص، لعبت فيها مصادفات الجغرافيا دورا أسطوريا. فهى جميعا دول قليلة السكان، وبالتالى فإن قدرتها الاستيعابية لإستثمار عوائدها فى بلادها محدودة ، ومن ثم فإن فوائضها المالية متناهية .

وعندما قفزت الأسعار بعد حرب البترول الأولى (أكتوبر ١٩٧٣)، و عندما عادت القفزة فى الأسعار تعيد نفسها مرة أخرى على نحو أكبر عند بواكير حرب البترول الثانية (من الثورة الاسلامية فى ايران سنة ١٩٧٨ حتى الحرب العراقية الإيرانية سنة ١٩٨٠) - استطاعت الدول الصناعية أن تستوعب الفوائض لأنها وضعت سياسة ذكية لتدويرها ، أو فى الحقيقة امتصاصها.

نشطت تجارة السلاح لغير عدو، وزادت معدلات الاستهلاك المستورد من الخارج لغير حاجة، ووضعت القيود على حركة المال بنظم من نوع سندات الخزانة المرهونة بغير ضرورة للرهن- والحاصل أنها كانت جميعا وسائل لاستعادة المال خصوصا وقد فاض عن احتياجات من وصل المال إليهم .. لقد عجزوا عن استخدامه واستباحة الآخرون .

لكن الزيادات المقبلة فى الأسعار إذا تركت وشأنها، يمكن أن تجيء بمخاطر لا يجدي معها التدوير ولا الامتصاص .

وإذن فلا بد من سياسات أخرى تضبط الأمور وتحكمها هناك فى الخليج عند المنابع ، وليس هنا فى الغرب عندما يتدفق التيار العارم من الذهب الأسود إلى أسواق العالم ، ويدور فى محركات الحضارة والحياة .

وأضيف إلى ذلك ثقل آخر محسوس .

ذلك أن دول الخليج بأوضاعها التقليدية، وبتركيبها السكانى المحدود، تتحول إلى كيانات هشة لا تقدر على تحمل المفاجآت . ثم إن غناها المفرط ، ومن حولها كثافات سكانية فقيرة في جنوب شرق آسيا (باكستان والهند)، وفى الهلال الخصيب (سوريا ولبنان والعراق والاردن وفلسطين) ، وفى وادى النيل (مصر والسودان)- هذا غير الأغنياء الأقوياء الذين يريدون بترولها (الشرق الأقصى وأوروبا الغربية) ـ كل ذلك يشكل عوامل تدافع متصادمة الاتجاهات تؤدى إلى مخاطر لا تستطيع هذه الكيانات الهشة أن تتحمل ضغوطها .

وإذن فالمنطقة تطرح نفسها على التفكير والتخطيط من جانب هؤلاء النين يملكون حرية وامكانية التفكير والتخطيط والفعل .

---------------------- ٤ ----------

إن كنزا بهذا الغنى، وبهذه الأهمية كان يتطلب. وبإلحاح شديد- حماية تصد غارات المطامع والأهواء . وكانت هناك باستمرار خطة عسكرية لحماية الخليج . وكانت هذه الخطة تتصور الخطر على المنطقة (فى ذلك الوقت) من مصدرين :

o خطر من الاتحاد السوفيتى الذى قد تراوده غواية الكنز نفسه، إلى جانب حلم " بطرس الأكبر " التاريخى بالوصول إلى المياه الدافئة فى الخليج والمحيط الهندى . وكان الأستعداد لهذا الاحتمال يتصل بما هو أكبر من المنطقة ، وهو المواجهة الشاملة بين القوتين الأعظم إذا حدث واقترب الاتحاد السوفيتى من منابع البترول العربى . ساعتها سوف تكون الحرب عالمية ، وسوف تستخدم فيها أسلحة نووية دون جدال . وكانت الولايات المتحدة تستبعد مثل هذا الاحتمال ، لأنها تدرك بيقين أن الاتحاد السوفيتى يفهم بدقة أن استيلاءه على بترول الخليج يعنى حربا عالمية . والحقيقة أن الاتحاد السوفيتى كان يعى نلك تماما ويفهمه .

o وخطر محلى قد ينشأ نتيجة مغامرة إقليمية يقوم بها طرف من الأطراف . وكان تخطيط الولايات المتحدة إزاء هذا الاحتمال هو دور رجل البوليس الإقليمى، وهو دور عهد به لشاه إيران ، ومن أجله فتحت أبواب مخازن السلاح الأمريكية على الآخر أمامه ليأخذ منها ما يشاء بإذن على بياض أعطاه الرئيس " ريتشارد نيكسون " للشاه " محمد رضا بهلوي " ، وظل مفعوله ساريا فى رئاسة " فورد " و " كارتر" بعد اختفاء " نيكسون " من البيت الأبيض بسبب فضيحة " ووترجيت".

ثم حدث أن سقطت أسرة " بهلوى " تحت مطرقة الثورة الاسلامية فى إيران، ولعدة شهور كان القلق يستبد بالولايات المتحدة الأمريكية بسبب غياب دور رجل البوليس المحلى، وبسبب القلق على مصير السلاح الأمريكى المكدس فى إيران وفى يد من يقع ؟ وليس هناك مجال للشك فى أن الولايات المتحدة ارتاحت كثيرا عند ما نشبت الحرب العراقية – الإيرانية سنة ١٩٨٠. ويذكر الاميرال " ستانسفيلد تيرنر " الذى كان مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، فى مذكراته بعنوان " الإرهاب والديمقراطية " ، أن واشنطن استقبلت أنباء نشوب المعارك على الجبهة العراقية الإيرانية بسعادة ترجع في جزء منها إلى أن الثورة الاسلامية التى تملكت أسلحة الشاه ، سوف تصبح مرغمة على استهلاكها فى حرب ضروس أمام العراق . وراحت واشنطن تتابع سير المعارك ، وتحصى خسائرها باهتمام وتشوق الى مزيد.

وقبل احتدام المعارك دموية وقاسية على جبهات الحرب العراقية الإيرانية - كانت الولايات المتحدة قد استيقظت على خطوة سوفيتية بدت لها متناقضة تماما مع ما أعدت له وتوقعته . فقد فوجئت الولايات المتحدة فى أواخر شهر ديسمبر ١٩٧٩ بالجيش السوفيتي يجتاز حدود أفغانستان ، ووحداته المدرعة تتسابق نحو العاصمة الأفغانية " كابول " . وكان أول ما خطر لأعضاء مجلس

الأمن القومى الأمريكى الذين دعوا إلى اجتماع عاجل مع الرئيس " جيمى كارتر " - هو أن الاتحاد السوفيتى قام بقفزة طويلة فى اتجاه بترول الخليج ، وأن هذه القفزة قد تكون خطوة وراءها أغلب الظن ما وراءها . وتقررت في هذا الاجتماع العاجل اجراءات ضد الاتحاد السوفيتى اعتبرت بمثابة افتتاحية تمهيدية لمعركة قد تدور على بترول الخليج . وكان بين هذه الاجراءات فرض عقوبات اقتصادية على الاتحاد السوفيتى، ودعوة إلى مقاطعته، وحملة دعائية ضخمة للتشهير بأهدافه .

ولم تمض غير أيام حتى أدركت الولايات المتحدة أن القفزة السوفيتية إلى أفغانستان لم تكن كما ظنت فى الساعات الأولى بعدها . وبدأت التقارير تصل إلى واشنطن من مراكزها المتقدمة فى المنطقة تشير إلى أن التد خل السوفيتى فى أفغانستان لا يتعدى حدود هذا البلد ، وأن القوات المسلحة السوفيتية د خلت فى الواقع للحيلولة دون انقلاب ضد نظام موال لموسكو فى كابول . ولم تكن المخابرات المركزية الأمريكية بعيدة عن مدبري هذا الانقلاب ، وإن كانت لم تتحسب ولا قدرت أن الرد السوفيتى على المحاولة سوف يكون بالتد خل العسكرى المباشر. ولم يكن فى مقدور أحد أن يقطع بطريقة حازمة أن الاتحاد السوفيتى سوف يظل حبيسا وراء جبال أفغانستان . والنتيجة أن الولايات المتحدة بدأت تطرح على مائدة البحث ما كانت ترضى بتأجيله فى ظروف سابقة، وهو: التواجد عسكريا على أرض الشرق الأوسط .

كانت هناك أطراف عديدة قد طرحت نفسها لدور رجل البوليس المحلى بدلا من شاه ايران الذي تهاوى عرشه فى طهران، ولكن معظم الترشيحات التى طرحت نفسها لهذه المهمة كانت دون المواصفات المطلوبة لمن يقوم بها . فإسرائيل مثلا لا تستطيع لأن إسناد هذه المهمة إليها كفيل بأن يغرق مهمة حماية البترول العربى فى دوامات الصراع العربى- الاسرائيلي . كما أن قيام أى طرف عربى بهذا الدور معناه تسليحه بقوة عسكرية يمكن له أن يستخدمها فى معركته ضد إسرائيل، وهى معركة لا تحتاج إلى أسباب جديدة لأن أسبابها قائمة ومستمرة .

وفى نفس الوقت فإن الولايات المتحدة كانت تخشى- فى أزمنة خلت- أن يؤدى تواجدها المباشر عسكريا على الأرض العربية إلى تعقيدات متشابكة سياسيا، ونفسيا، وربما عسكريا أيضا . وأبسط الاحتمالات أن تصبح القوات الأمريكية فى المنطقة هدفا دعائياً يحرض جماهير المنطقة ضد السياسة الأمريكية، ويستفز عداءها الكامن للولايات المتحدة .

وفى النهاية برزت فكرة قوة الانتشار السريع، وطرحت على الساحة، وتحمس لها البعض . لكن الفكرة منذ اللحظة الأولى لطرحها اثارت رياحا و عواصف شديدة ، ثم طويت صفحتها مؤقتا، وانهمكت الولايات المتحدة فى البحث عن بديل عسكرى آخر يوفر حماية الخليج ، ولا يستثير حساسية أحد، خصوصا أنظمة تقليدية تسعى إلى التهدئة وصرف الأنظار عن أحوالها ، ولا تسعى بالقطع إلى الاستثارة أو الإثارة فى أجواء معبأة ومشحونة .

كان القرار الأمريكى فى النهاية هو انشاء قوة تدخل سريع أمريكية تتمركز فى الولايات المتحدة نفسها ، وتكون جاهزة لكى تحمل جوا وبحرا الى المنطقة عند أي طارىء . وبذلك تكون الولايات المتحدة مستعدة ، وتكون قواتها المخصصة لحماية الخليج على أراضيها، وليست على أراضى

المنطقة حيث يمكن أن يؤدى تواجدها إلى عكس الهدف من إنشائها . وأطلق على قيادة هذه القوات قيادة المنطقة المركزية . ويقول تقرير صادر عن هذه القيادة ذاتها سنة ١٩٨٨ [**تم تقديم التقرير إلى لجنة القوات المسلحة في الكونغرس ضمن تقارير وزارة الدفاع سنة ١٩٨٨ – وعلى أساسه اعتمدت ميزانية قوات الانتشار السريع لتلك السنة ، وقد قام الدكتور " انتوني كورسمان " بنشره كاملاً في كتابه " الخليج والغرب " الذي صدر في لندن سنة ١٩٩٠ .**] فى المقدمة التمهيدية له ما نصه : " بالخلفية السياسية والاقتصادية لمنطقة الخليج فإنه من الواضح أن الولايات المتحدة الأمريكية هى القوة الوحيدة فى الغرب التى تستطيع أن تتدخل فى الخليج فى معارك متوسطة أو كبيرة " . ثم يمضي التقرير فيقول : " إن الفكرة فى إنشاء هذه القيادة هو أن قوات الولايات المتحدة لا تملك الحرية الكافية للعمل العسكرى فى المنطقة عند الضرورة لأنها محددة بعدة قيود ، منها امكانية ما يمكن نقله بالجو وبالبحر فورا عندما تطرأ الحاجة إلى ذلك ، ومنها عدم وجود قواعد وتسهيلات كافية فى المنطقة تستطيع أن تخدم أهداف المعركة " . ثم يستطرد التقرير فيشرح الحاجة إلى مخازن متقدمة للمهمات والذخائر فى المنطقة بحيث يخصص المجهود الرئيسى فى حالة العمليات لنقل القوات .

ثم يورد التقرير جدولا بالقوات التى خصصت لقوة التدخل السريع الأمريكية ، فيحسبها على النحو التالى طبقا للميزانية المرصودة لهذه القيادة سنة ١٩٨٩:

" O مجموعة القيادة المركزية- هيئة الأركان- وعدد أفرادها ١١٠٠
وحدات تحت تصرف القيادة - وعدد أفرادها ١٣١٠٠٠
مكونة من مجموعة قيادة من الجيش الثالث الأمريكى
الفرقة ١٨ المحمولة جوا
الفرقة ٨٢ المحمولة جوا
الفرقة ١٠١ المحمولة جوا
الفرقة ٢٤ مشاه ميكانيكية
اللواء السادس المدرع المنقول جوا
فرقة الخدمات الأولى
O القوات البحرية للقيادة المركزية- وعدد أفرادها ١٢٣٠٠٠
وهى مكونة من:
مجموعة القيادة البحرية لقوات القيادة المركزية
٣ حاملات طائرات- مجموعة قتال طراز "A-P"
مجموعة عمل فوق الأرض
٣ مجموعات برمائية
٥ مجموعات دورية
قوة طواريء الشرق الأوسط (موجودة فى البحرين)
O قوات المارينز (مشاه أسطول)- وعدد أفرادها ٧٠٠٠٠
وهى مكونة من:
١ فرقة مشاه أسطول
١ فرقة مشاه أسطول طائرة
١ مجموعة قوة خدمات سريعة
١ كتيبة مارينز

١ مجموعة قوة مارينز جوية
١ لواء خدمة ومساعدة
o طيران القيادة المركزية
(القوة الجوية السابعة) - وعدد أفرادها ٣٣٠٠٠
وهي مكونة من :
٧ أسراب قتال تكتيكى
٣ أسراب قتال
٢ مجموعة قاذفات استراتيجية
١ مجموعة استطلاع وإنذار
١ مجموعة استطلاع جوى تكتيكى خاصة
١ مجموعة قتال الكترونى
١ مجموعة سرب عمليات خاصة
o قوات خاصة غير تقليدية - وعدد أفرادها ٣٥٠٠
بذلك يكون المجموع الكلى لأفراد القوات المتخصصة للقيادة المركزية ٢٩١٦٠٠ "

وفي جزء آخر منه يركز التقرير على المناطق التى توجد فيها قواعد، أو تسهيلات مفتوحة للتعاون مع القيادة المركزية الأمريكية لقوات التدخل السريع، سواء ما كان منها متفقاً عليه مبكراً قبل إنشاء القوة ، أو ما جد لاحقا بعد إنشائها - فيعددها تحت عنوان : " تسهيلات الطوارىء العسكرية فى منطقة الشرق الأدنى " - مضيفا إلى كل منها نوعا من الوصف التفصيلي لأوضاعها، فيقول كما يلى :

o منطقة شمال أفريقيا وما يحيط بها :
المغرب : قاعدة سليمانى : تم الاتفاق بشأنها فى مايو ١٩٨٠. كانت فى الأصل قاعدة لطائرات P 47 وقد جرى إغلاقها سنة ١٩٧٣، ثم أعيد تحديثها وفتحها لتمركز مجموعات العمليات س ١٤١ وس ٥ .
قاعدة النواصر: يجرى تجديدها، وستكون جاهزة فى مرحلة لاحقة.
ليبيريا : قاعدة مونروفيا : تم الاتفاق بشأنها فى فبراير ١٩٨٣ لكى توفر للقوات الأمريكية امكانية استعمال مطار دولى للطوارىء لأغراض النقل الجوي أثناء العمليات . وسوف تقوم الولايات المتحدة بتمويل عملية توسيع المطار بما يسمح باستعماله بواسطة طائرات س ٥، و س ١٧ و س ١٤١ .
o منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر :
مصر : حصلت الولايات المتحدة على موافقة ضمنية لتحريك قطعها البحرية عبر قناة السويس .
مطار غرب القاهرة : تستعمل القوات الأمريكية ممرا جويا لايطلق عليه اسم ، وهى فى العادة تستخدم هناك مجموعة من مائة فرد من العسكريين . وقد استعمل هذا الممر لنشاط مشترك قامت به طائرات " ف- ١٥ " و " أ ٣ أ " لنشاط " الأواكس " .

رأس بناس : لاتزال رهن التفاوض ، وتستطيع رأس بناس ان توفر امكانية ارتكاز لمجموعة طائرات " س ٥ ". وكذلك لتفريغ ونقل وحدات " س ل –٧ " وغيرها من سفن النقل البحرى السريعة .

جيبوتى : تم التوصل إلى ترتيبات وتسهيلات مع الحكومة الفرنسية بما يسمح بدخول وعمل القوات الجوية للدوريات البحرية.

تركيا : قواعد موس وباتمان وأرضروم : حصلت الولايات المتحدة على الحق فى ترتيبات غير رسمية لاستعمال ثلاث قواعد جوية تركية قرب الحدود مع الاتحاد السوفيتى وإيران والعراق . وهذه القواعد تابعة لحلف الاطلنطى ، وقد تم تمويلها بما يسمح باستعمالها بواسطة قوات الولايات المتحدة لطائرات النقل السريع والمقاتلات .

O منطقة الخليج والبحر الأحمر :

قاعدة دييجو جارسيا : يتم استخدامها باتفاق خاص مع المملكة المتحدة ، مدته خمسون سنة، وجرى توقيعه سنة ١٩٦٥. وتوجد فى القاعدة ممرات جوية طول كل منها ١٢ ألف قدم ، بما يسمح بعمل القاذفات وطائرات النقل الثقيلة . كما توجد هناك سبع سفن لإمداد العمليات المختلفة فى منطقة الخليج . وقد بدأ تجهيز وتجديد تسهيلات القاعدة ما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٨ بمبلغ قدره ٥٤٢ مليون دولار.

جزيرة سيشل : يوجد مركز اتصال تابع لهيئة الفضاء الأمريكية " ناسا " كما توجد أيضا قوة طيران .

كينيا : قواعد " مومباسا " ومطار " نان يوكى " وقاعدة " كينيا البحرية الرئيسية " : وهى تقدم مراكز اتصال ونقل وصيانة وشحن، وقد تم الأتفاق الخاص بها فى منتصف السبعينات، وتم توسيعها سنة ١٩٨٣، وبلغت تكاليف إعدادها من ميزانية ١٩٨٠ إلى ميزانية ١٩٨٨ مبلغ ٦٦ مليون دولار. كما صرفت الولايات المتحدة مبلغ ٣ مليون دولار لتعميق مياه " مومباسا " بما يسمح بدخول حاملات الطائرات إليها .

الصومال : قاعدة " مقديشيو" الجوية ، وقاعدة " بربرة " : وهما تقدمان للقوات الجوية الأمريكية خد مات نقل برى وبحرى وامكانيات صيانة وإصلاح محدودة ، وقد جرى توسيعهما سنة ١٩٨٣، وبلغت تكاليف ذلك فى ميزانية ١٩٨٠ إلى ميزانية ١٩٨٨ مبلغ ٢٤ مليون دولار.

ويلاحظ أن الصومال تبعد ١٤٠٠ ميل عن الخليج، وبالتالى فإن كل تسهيلات فيها يمكن أن تستعمل فى الرقابة البحرية وفى النقل الوسيط .

عمان : بلغت قيمة المنشآت العسكرية فيها من ميزانية ١٩٨٠ إلى ميزانية ١٩٨٨ مبلغ ٢٧٠ مليون دولار.

وتضم التسهيلات فى عمان ما يأتى :

قاعدة الخصب : قاعدة جوية صغيرة فى شبه جزيرة موسانديم قريبة من جزيرة المعيز ومضيق هرمز، وامكانياتها محدودة ، وهى ملائمة لأعمال الدوريات البحرية والجوية.

قاعدة نصيرة : وقد تم توسيعها لتصبح قاعدة جوية وبحرية فعالة بتكلفة قدرها ١٧٠ مليون دولار، كما جرى تشوين مهمات ومعدات فيها بما يساوى ١٢١ مليون دولار. وبين مخزوناتها مواد تموينية ولوريات و أجهزة الكترونية للنقل الجوى ، وذخيرة مدفعية وصواريخ جو- جو .

قاعدتا ثوماريت وسيب : وهما قاعدتا طوارىء جوية وتسهيلات تقوم باستعمالهما الآن مجموعة دورية بحرية وجوية.

المملكة العربية السعودية :

لم توقع حتى الآن رسميا اتفاقية قواعد مع المملكة السعودية، ولكن الولايات المتحدة تستخدم فى المملكة أسراب من طائرات " ف- ١٥" و " ك. س- ١٠" ، وكذلك حاملات وقود من طراز " ك. س- ١٣٥، و " أ- ٣- أ " ، وتعمل هذه القوات من قواعد سعودية فى حالات الطوارىء، كما تستعمل مجموعة " أ- ٣- أ " فى قاعدة الرياض . إن كل القواعد الجوية الرئيسية فى السعودية تتمتع بامكانيات الحماية والتسهيلات اللازمة لأى تعزيزات أمريكية جوية ، أو لأية قوات إمداد أمريكية ثقيلة، وتوجد قواعد رئيسية ضخمة فى الظهران وفى حفر الباطن ، وهى جاهزة للاستعمال عند الضرورة .

البحرين : إن مجموعة قوة الشرق الأوسط الأمريكية تستخدم قواعد فى البحرين . وكان هناك اتفاق رسمى بهذا الشأن انفضت مدته. وتحتفظ الولايات المتحدة بقوة إمداد تعدادها ٦٥ عسكريا، كما أنها صرفت حوالي ٣ ملايين دولار على إنشاءات عسكرية، كما توجد فى البحرين أيضاً مجموعة قيادة تابعة لقوة التدخل السريع تعمل من على ظهر قطعة بحرية جهزت لتكون وحدة قيادة.

الكويت : وافقت الكويت فى نهاية سنة ١٩٨٧ على أن تسمح للولايات المتحدة باستئجار رصيف عائم يقف فى مياهها الإقليمية، وأهمية هذا التسهيل أنه يخلق سابقة مهمة، ويظهر استعداد الكويت لقبول أكثر في حالة شعورها بالضرورة .

وهكذا كانت الحقائق فى التفكير والتخطيط والتنفيذ تفرض نفسها نطاقا من حديد يحيط بالبترول ويحميه.

كان الكنز محصنا إلى درجة لا تدعو أحدا إلى الأقتراب منه.

وكانت الصورة من حوله خطيرة ومخيفة.

وباختصار كانت تلك هى الحقائق بالنسبة للمنطقة التى تكمن فيها مقادير القرن الواحد والعشرين، وهوية هذا القرن التى كان بعضهم يريد أن يجعلها هوية أمريكية ، خصوصاً إذا كان يملك عوامل القوة اللازمة.

والواقع أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت مؤهلة للهدف الذى أخذت على عاتقها تحقيقه .
فهى القوة الأولى التى اكتشفت البترول وطوعته للانتاج ، وهى القوة الأولى في انتاجه فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وهى القوة الأولى التي بنت نفسها ومستقبلها على وجوده ، وهى القوة الأولى التى سادت فى أسواقه ، وهي القوة الأولى التى اكتشفت أكبر موارده فى المملكة العربية السعودية، وهى القوة التي استطاعت فى النهاية أن تمسك بمنابعه الرئيسية فى العالم، وأهمها منابع الخليج ، وهي القوة التي وضعت الترتيبات اللازمة لحمايته.

فهى إذن متسقة مع نفسها عندما تلحق القرن الأمريكى الأول بقرن أمريكي ثان اعتمادا على البترول ، خصوصا إذا كانت الوحيدة التى تملك القدرة الكافية والجاهزة لحمايته.

الفصل العاشر

قوة تبحث عن هدف !

" ليس هناك عمدة لأى مدينة يفكر جديا فى تسريح قوة البوليس الموضوعة تحت تصرفه- وإذا فعل ذلك فإن السلام فى مدينته سوف ينحل ويختفى ".
[الجنرال " كولين باول " أمام لجنة الشئون الخارجية لمجلس الشيوخ الأمريكى- فى مارس ١٩٩٠] .

---١--------------------------------

من طبائع الصراعات التاريخية أن كل قائد سياسى (أو عسكرى) يقاس بحجم الميدان الذى تحرك فيه وترك آثاره على ساحته، أو بحجم خصومه أو أعدائه- لأنهم فى النهاية معايير مجسدة للتحديات التى واجهها فى عصره .

فـ " الاسكندر الأكبر " يقاس بحجم المسافة التى يحتلها مثلث ترتكز أضلاعه على مقدونيا من ناحية، وفارس من ناحية، ومصر من ناحية ثالثة. و " نابليون بونابرت " يقاس بحجم أوروبا التى حلم يوما بالسيطرة عليها. و " بسمارك " يقاس بحجم الدولة الألمانية الكبرى التى صنع وحدتها وتركها لدورها الكبير فى وسط أوروبا .

وفى العصر الحديث ، ومع تنامى تأثير وسائل الإعلام والاتصالات ، زاد بروز العنصر الإنسانى على حساب العنصر الجغرافى، فقد أصبحت المواجهة رجلاً أمام رجل بكل ما يمثله كل واحد منهما. وكانت الحرب العالمية الثانية فى صورتها البسيطة والشائعة- مبارزة بين " تشرشل " و " هتلر " بكل ما يرمز إليه كل واحد منهما . كما أن الحرب الباردة التى أعقبتها تحولت إلى شبه مبارزة بين " خروشوف " و " ايزنهاور " ، ثم بين " خروشوف " و " كنيدى " فى فترة لاحقة. وتكررت فى السنوات القريبة صورة الرجل وخصمه أو عدوه ، والعلاقة الوثيقة بين الاثنين بالصراع . وربما لم يكن أحد فى العالم ليسمع باسم الزعيم الفيتنامى " هوتشي منه " لولا ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين جعلوه هدفا لصراعاتهم التاريخية . ونفس الشيء ينطبق على " جمال عبد الناصر " إذا لم يستهدفه " انتونى ايدن " ، و" كاسترو " لو لم يتقصده " جون كنيدى " .

والواقع أن كل رئيس أمريكى لم يكن ليستطيع أن يجد إطارا ملائما لصورته في أبهاء التاريخ إلا إذا عثر على الخصم أو العدو الذى يؤكد نفممه أمامه، ويفرض إرادته عليه . فعصر ثورة الإعلام والاتصالات يستدعى تجسيدا للصراعات يستطيع تحويلها إلى صور حية وناطقة.

ولقد كان من حظ الرؤساء الأمريكيين فى الأربعين سنة الأخيرة أن كان لديهم خصم جاهز، وعدو ينتظر فى أى لحظة يقررون فيها - طبقا لاعتبارات موضوعية بالطبع - أن وقت التصعيد قد حان. وكان هذا الخصم الجاهز والعدو المنتظر هو الاتحاد السوفيتي والشيوعية الدولية . وكان " رونالد ريجان " أسعد هؤلاء الرؤساء الأمريكيين حظاً ، ففي مدة رئاسته الأولى أعلنها حربا شعواء على ما أسماه " امبراطورية الشر " ــ يقصد الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية . وفى المدة الثانية لرئاسة

" رونالد ريجان " كانت المفاجأة أن " امبراطورية الشر " راحت تتداعى وتتساقط قوائمها وجدرانها، ثم تحولت إلى أنقاض دول ، وبقايا شعوب تحت بصر عالم لا يكاد يصدق ما يرى، وأمام رئيس أمريكي استبدت به النشوة وأخذه الزهو معتبرا أنه حقق انتصارا لا يعادله انتصار فى تاريخ الامبراطورية الأمريكية.

لقد ذابت " امبراطورية الشر " بطريقة لم تحدث من قبل لأية امبراطورية في التاريخ : سقط الحزب الشيوعى البولندي فى أول انتخابات حرة د خلها . ثم لحقه الحزب الشيوعى المجرى الذى قام بحل نفسه، وغير اسمه قبل أن يتقدم للناخبين . ثم استقال "ايريك هونيكر" زعيم ألمانيا الشرقية، وتحول سور برلين إلى حجارة وتراب ، وبدون أية مقاومة ألحقت ألمانيا الشرقية نفسها بألمانيا الغربية. وفى تشيكوسلوفاكيا اختفى " ميلوس جاكيس " هو وكل المكتب السياسى للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى، ولم يظهر لهم أثر . ولحق بقافلة الهاربين " تيودور جيفكوف " زعيم الحزب الشيوعى البلغارى . وحاول " نيكولاي شاوشيسكو " أن يصلب عوده أمام عاصفة التغيير الجارفة، ولكنه أهدر دمه في موقف أخير يائس ، وحكم عليه بالإعدام وطويت صفحته.

وفى خاتمة المطاف كان الدور على عاصمة " امبراطورية الشر " فى موسكو التى بدت كمصاب بمرض " الايدز " (المرض الذى يعنى انهيار نظام المناعة الطبيعية فى أى جسم حي) - فإذا عاصمة الامبراطورية بلا إرادة، وبلا عضلات، وبلا مقاومة.

كانت القوة العسكرية الأمريكية ومعها قوة حلف الأطلنطى، مهيأة لمواجهة " امبرطورية الشر"- فى وضع غريب. فالعدو الذى استعدت من أجله لم يعد له وجود، بل انه اختفى فجأة وكأن وجوده من الأصل كان مجرد سراب . وكان بعض جوانب الصورة شبه هزلية ، فقد كان مقررا فى ربيع ١٩٨٩ أن تقوم قوات حلف الأطلنطى بمناورة واسعة لصد هجوم يفترض أن تقوم به قوات حلف وارسو مندفعة إلى غرب أوروبا . وكان مشروع المناورة قد درس لآخر تفصيل فيه. واعترض المستشار " هيلموت كول " ، على إجراء هذه المناورة أساسا لأن اجراءها سوف يجعل حلف الأطلنطى أضحوكة العالم ، وكانت ملاحظته لسكرتير حلف الأطلنطى، وهو الجنرال " مانفرد فورنر" الذى ذهب إلى موعد معه بصحبة الجنرال " جون جالفين " القائد العام لقوات الحلف : " لابد أنكم تهزلون إذا تصورتم أن الحكومة الفيدرالية يمكن أن توافق على استمرار مثل هذا المشروع " . ثم أضاف " كول " : " إن الظروف تغيرت ، ويبدو لى أن مؤسساتنا العسكرية لم تأخذ بعد علماً بالحقائق الجديدة " .

وبدأت دول عديدة من أعضاء حلف الأطلنطى تراجع التزاماتها العسكرية إزاء الحلف الذي أصبح بلا وظيفة ، مثله مثل الحلف الآخر الذى يقابله على خطوط مواجهة لم تعد قائمة رغم وجود قرابة ثلاثين ألف رأس نووى تنتصب ، أو تكمن متربصة وراء كل ناحية .

وبدأت عملية المراجعة تعبر الأطلنطى واصلة إلى الولايات المتحدة ، حيت أخذت لجان عديدة فى الكونجرس- الذى كان منهمكا فى نظر الميزانية الجديدة للولايات المتحدة سنة ١٩٩٠ - تتحدث بجد وحزم عن تخفيضات كبيرة فى ميزانيات الدفاع ، واتجاهها الذى قارب حد التصميم هو أن الوقت

أصبح مناسبا لتحويل جزء من الأعباء الباهظة لسباق السلاح إلى الخدمات ، حتى يشعر المواطن الأمريكى العادى بمزايا الانتصار الذى تحقق للولايات المتحدة وانهزمت فيه " امبراطورية الشر" . كان موقف قيادة القوات الأمريكية المسلحة متناقضا مع نلك الاتجاه في تلك الظروف من أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠ ، فليست هناك قوة مسلحة تستطيع أن تتصور لنفسها دورا غير استعمال قوتها ، أو دور الإضافة إلى امكانيات هذه القوة تحسباً لأخطار قادمة . وإلى جانب ذلك، فليست هناك قيادة لقوة مسلحة تقبل تخفيض الميزانيات المخصصة لها تخطيطا وسلاحا ورجالا. ومع ذلك فها هي القيادة العليا للقوات المسلحة الأمريكية لا تستطيع فيما بينها وبين نفسها إلا أن تسلم بأن العدو الذى كانت مهيأة ومستعدة لقتاله- لم يعد موجودا ، وأسوأ من ذلك فليس هناك فى الأفق مصدر آخر محتمل للخطر . وصحيح أن المصالح الأمريكية شاسعة على امتداد القارات والمحيطات ، ولكن المناخ السائد فى كل هذه القارات والمحيطات لم تظهر عليه علامات تشير إلى خطر معين يستدعي وقفة من جانب القيادة العليا للجيش الأمريكى تصد عنها ، وعن قواتها ضغوط هؤلاء الذين راحوا ينادون بأن النصر ضد " امبراطورية الشر " تحقق ، وأن السلام جاء ، وبالتالي فإن ميزانيات القوات المسلحة أصبح محتما تخفيضها لصالح مزايا السلام .

والغريب أن الرئيس الأمريكى " جورج بوش " كان فى نفس الوضع ، فسلفه " ريجان " كان فى البيت الأبيض عندما تهاوت " امبراطورية الشر " ، وبالتالي فهو الرجل الذى من حقه أن يضع على صدره ميداليات الشرف ويمنحها لغيره أيضا . كما أن حقائق الأحوال لم تكن تسمح لرئيس أمريكى واحد تصادف وجوده فى البيت الأبيض عند لحظة الانتصار - أن يدعى لنفسه فضله ، فهذا الفضل حتى إذا جازت نسبته لرئيس أمريكي - فضل شائع موزع على كل الرؤساء الأمريكيين ابتداء من " ترومان " وحتى " ريجان " ، فكلهم فى زمانه تصدى " لامبراطورية الشر " وأرهقها بالاستنزاف حتى نزلت جاثية على ركبتيها .

كان الرئيس الأمريكى يبحث عن طرف يواجهه، وميدان يثبت نفسه فيه ، وكذلك كانت المؤسسة العسكرية، وكذلك أيضا كانت مؤسسة الأمن الأمريكى .

وفي أول خطاب عن " حالة الاتحاد " ألقاه " جورج بوش " فى يناير ١٩٨٩ ، ركز على قضية مكافحة المخدرات ، وأعلن أنه سوف يرضيه أن يدخل التاريخ باعتباره الرئيس الأمريكى الذي خلص البشرية من هذا الوباء الذى فتك بشبابها . وطلب أن تخصص ميزانية مقدارها ٨ بلايين دولار دفعة اولى للحرب ضد المخدرات . ومضى خطوة أبعد من ذلك ، فعرض على حكومة كولومبيا ، التي كانت داخلة في معركة مع " بارونات المخدرات ، أن تشترك القوات الأمريكية معها مباشرة في الحرب ضد العصابات المنظمة في " موداين " (المدينة الكولومبية التي تحولت إلى عاصمة لتجارة المخدرات في العالم) .

وبعدهدف مكافحة المخدرات ، كان هدف " بوش " الثانى هو مكافحة الإرهاب الدولي . وكانت صور مأساة حادث الانفجار الذى تعرضت له طائرة تابعة لشركة " بان أمريكان " فوق قرية " لوكربى " فى بريطانيا - لا تزال حاضرة فى الأذهان . كما أن عددا من الرهائن الأمريكيين كانوا لا يزالون فى أعماق الظلام فى سراديب لبنان الموحشة.

وللوهلة الأولى تبدى ما قاله " جورج بوش " مقنعا – لكن الرأى العام فى الدول المتقدمة لايكتفى بنظرة واحدة على الأمور، وإنما يتبع النظرة الأولى عادة بثانية وثالثة- ومع التأمل و الفحص ظهر أن ما قاله " جورج بوش " لم يكن قادرا على تعبئة الناس أو إقناعهم أن تلك رسالة مقدسة للقوة الأعظم الوحيدة الباقية ، ثم إنه فى كل الأحوال لايحتاج لقوة عسكرية هائلة بقدر ما يحتاج لقوة بوليس نشيطة.

وطوال سنة ١٩٨٩- السنة الأولى من رئاسة " جورج بوش " - كان الهدف الاستراتيجي الأمريكى ضبابيا ، غير واضح المعالم وغير محدد القسمات ، وكانت الدعوات لاختصار ميزانية القوات المسلحة تزداد الحاحا، وحركة المطالبة بتخفيضها تزداد اتساعا.

كان لابد من خطر مقنع يبرر حجم الإنفاق وحجم القوة العسكرية الأمريكية، ويعطى الاثنين هدفاً استراتيجيا له معنى وله موضوع .

وفي أول مارس ١٩٩٠ وقف " ريتشارد تشينى " وزير الدفاع الأمريكى أمام لجنة العلاقات الخارجية فى الكونجرس يطلب الموافقة على زيادة فى ميزانية الدفاع - وهذه هى العادة في كل ميزانية (والمؤسسات لا تتخلى عن عاداتها بسهولة مهما كان من شأن المتغيرات حولها) .

وبدأ " تشيني " كلامه أمام اللجنة فقال : " إننا نشهد ونحن نبدأ حقبة التسعينات متغيرات عميقة الأثر أمامنا ، وهى اختلاف مناخ الأمن الذى نعمل فيه بأعمق مما رأيناه طوال الأربعين سنة الماضية. إن هذه الحقبة تعطينا آمالا كبيرة ، وهى فى نفس الوقت تطالعنا بشيء من عدم اليقين .
إن التغييرات التى وقعت فى أوروبا الشرقية مذهلة ، ففى ظرف شهور من سنة ١٩٨٩ لم يتبق أمامنا من كل الزعماء الذين عرفناهم فى إطار حلف وارسو سوى " ميخائيل جورباتشوف " . "

ثم استطرد " تشينى " يقول : " إن الثورة السياسية التى رأيناها فى معسكر حلف وارسو تعدنا بتغيرات عسكرية مهمة ". ولم يجد " تشينى " شيئا مؤثرا يقوله عن خطر " امبراطورية الشر" سوى قوله : " مع أن خطر المواجهة العسكرية بيننا وبين الاتحاد السوفيتي قد زال ، إلا أن الاتحاد السوفيتى لا يزال يدعم أنظمة قمعية كتلك التى تحكم فى أفغانستان وكوريا الشمالية وليبيا وأثيوبيا وكوبا. وعلينا هنا أن نراقب موسكو لكي نتأكد أن كلامها عن التفكير الجديد قد تحول إلى واقع من السلوك الجديد. "

ثم وصل " تشينى " إلى الشرق الأوسط فقال : " ان الأوضاع الاقتصادية في تلك المنطقة تضعف النظم المحلية وتؤجج سباق السلاح بينها ، وريما تؤدى الى مخاطر حروب مسلحة بين هذه الدول .
ثم ان عدم الاستقرار المزمن فى هذه المنطقة قد يؤدي إلى اعتراض تدفق البترول فى الخليج الفارسى. "

ولم تكن تلك كلها مخاطر تستدعى زيادة القوة العسكرية. ولذلك فإن " ريتشارد تشيني "عاد مرة أخرى إلى نفس الأهداف التى سبق لـ " جورج بوش " أن تحدث عنها - فأشار إلى المعركة ضد المخدرات قائلا إن " التدفق غير الشرعى للمخدرات إلى أسواق الولايات المتحدة ، وكنلك الطلب المتزايد على هذه المخدرات – مشكلة عويصة تمس الأمن القومى على نطاق واسع ٠ ان وزارة الدفاع تتحمل مسئوليتها كاملة في المعركة القومية ضد المخدرات. "

ثم جاء الدور على الإرهاب الدولى، فقال " تشيني " : " إن الإرهاب الدولي زاد زيادة درامية فى حقبة الثمانينات، والمعلومات المؤكدة لدينا تجعلنا معتقدين أن هذه الزيادة متصاعدة فى حقبة التسعينات. والرعايا الأمريكيون المحتجزون الذين كانوا فى الماضي مستهدفين من هذا الإرهاب، سوف يظلون مستهدفين . "

ومرة أخرى لم تكن تلك أهدافا حقيقية للقوات المسلحة للقوة الأعظم التى بقيت وحيدة على قمة العالم.

وكانت عملية البحث عن هدف للقوة العسكرية الأمريكية مازالت مستمرة .

وجاء الدور على الجنرال " كولين باول " رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية، الذى وقف يوم أول مارس ١٩٩٠ أيضا يتحدث إلى لجنة العلاقات الخارجية. ويبدأ حديثه قائلاً : " يجب أن ننظر إلى التاريخ وإلى الحوادث الجارية وعيوننا على المستقبل - ومهما كانت الظروف فإن هدفنا لا يمكن أن يصبح حل أو تفكيك أوصال القوة الأمريكية . إنني توليت مسئولية منصبى كرئيس لهيئة أركان الحرب آملا أن أساعد على تشكيل القوة الامريكية لمواجهة تحديات المستقبل ، وليس لأقوم بتسريح الجيش الأمريكى ، وأضعف موقف الولايات المتحدة فى العالم . "

ثم بدأ الجنرال " كولين باول " يحدد أهداف القوة الأمريكية، وراح يعددها على النحو التالي :

" ١- ردع أى هجوم عسكرى ضد الولايات المتحدة ، وحلفائها، وأى بلد مهم بالنسبة لها ، والتأكد من أن هذا الهجوم قد تم ردعه وهزيمته (ولم يحدد الجنرال " كولين باول " مصدرا لهذا الهجوم أو قوة دولية قادرة عليه) .
٢- زيادة نفوذ الولايات المتحدة فى العالم بما يخلق مناخا يساعد على التطور الديمقراطى ، والتجارة الحرة ، وفتح أسواق العالم أمام الولايات المتحدة بما ييسر لها الحصول على كل الموارد، والوصول إلى كل المحيطات ، وحرية الحركة في الفضاء .
(وكانت هذه مجموعة أهداف لا تحققها القوة العسكرية ، وانما تحققها الكفاءة الاقتصادية والتفوق التكنولوجى).
٣- إن هذه الأهداف لابد أن تذكرنا جميعا فى أمريكا بأننا لا نستطيع أن نفرق بين الأمن العسكرى والآمن الإقتصادى ، فكل واحد منهما مندمج فى الآخر، وإذا أردت أن أضرب مثلا بسيطا فإن التجارة الآمنة والأزدهار الاقتصادي في مدينة ما يعتمد على الوجود النشيط لرجل بوليس حازم،

وليس هناك عمدة لأى مدينة يفكر جديا فى تسريح قوة البوليس الموضوعة تحت تصرفه، وإذا فعل فإن السلام فى مدينته سوف ينحل ويختفى . "
(وكان الجنرال " باول " يقوم بتنصيب الولايات المتحدة عمدة على العالم ، ويوكل لقواتها المسلحة بأكبر ترسانة نووية - دور البوليس الموجود تحت تصرف العمدة !)

ثم خلص الجنرال " باول " وهو يشعر فى أعماقه أن كلامه ليس مبررا لزيادة القوة الأمريكية : " إننا يجب أن نكون مستعدين لحفظ السلام ، وأن تكون قواتنا المسلحة جاهزة لتمنع الأزمات الصغيرة فى العالم من أن تتحول لأزمات كبيرة ، ونكون قادرين على مواجهة الطوارىء من أى اتجاه تظهر فيه. "

وكان الهدف العسكرى الأمريكى لا يزال ضبابيا بكل ما يثيره ذلك من شكوك فى النفس ، وحتى فى الإحساس بالقوة ، فليست هناك قوة يمكن أن تشعر بأهميتها إلا بالقياس إلى قوة أخرى أمامها ، ذلك أن القوة بالدرجة الأولى تصبح حقيقية بمقدار التحدى الذى تواجهه ، فإذا اختفى التحدى فقدت القوة مرجعيتها، وحتى شخصيتها ، فلم تعرف من هى؟ إذ لم تعد تعرف من هو الآخر!

------- ٢----------------------------

إن التطورات المفاجئة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى، وأدت إلى ذوبان واحدة من القوتين الأعظم فى بحر شهور قليلة- لم تؤد فقط إلى حالة ارتباك سياسي واستراتيجي فى الولايات المتحدة ابتداء من رئيسها " جورج بوش " ، إلى وزير دفاعها " ريتشارد تشيني " ، وإلى رئيس أركان حربها " كولين باول " - بل وأكثر من ذلك فقد شاع الارتباك فى أوساط أساطين الفكر الاستراتيجى فى الولايات المتحدة ، وانتقل منهم إلى آخرين على اتساع العالم .

فى هذه الفترة خرج مفكر أمريكى من أصل يابانى، هو " فوكوياما " ، بنظرية عن " نهاية التاريخ "، معتبرا أن تناقضات الفكر فى العالم قد انتهت بانتصار الرأسمالية ، وبالتالى فإن هذه الخاتمة للصراعات المذهبية معناها أن التاريخ وصل إلي نهايته . (ولم تكن مقولته صحيحة، واضطر هو بنفسه أن يعترف بعدم صحتها بعد أن شغلت العقول ، وأثارت الجدل عاما بأكمله) .

وفى هذه الفترة أيضا راجت مقولة لـ " ميخائيل جورباتشوف " عن أن " توازن المصالح " ، فى العالم سوف يحل محل " توازن القوى " كمعيار فى إدارة العلاقات الدولية . (ولم تكن هذه المقولة بدورها صحيحة أيضا لأن توازن المصالح لا يمكن أن يتحقق في غيبة من توازن القوى ، وعلى أى حال فإن " جورباتشوف " قالها فى تبرير " تفكيره الجديد " فى مرحلة من المراحل السابقة على تسليمه الكامل بإفلاس التجربة الشيوعية) .
وهكذا فلم تكن الولايات المتحدة وحدها فى عملية بحث عن فكر استراتيجي جديد يتلاءم مع ظروف متغيرة ، وإنما كان العالم بأسره معها فى حيرتها وتخبطها في تلك المرحلة.

كانت تلك فترة حائرة بالنسبة لكثيرين، ولم يكونوا جميعا من مجالات التخطيط أو الفكر، و إنما تجلت الحيرة أيضا، وربما أكثر، فى دوائر الاقتصاد العالمى . فالسياسة تصنع الاقتصاد بمقدار ما

أن الاقتصاد يصنع السياسة ، ثم إن بعض الصناعات ، وربما أكبرها ، تتصل مباشرة بالرؤى الاستراتيجية للدول ، وأولها بالطبع صناعات السلاح ، والفضاء ، و غيرها .

ولقد كانت الولايات المتحدة ترى مقدمات تناقض قادم - لكن هذا التناقض لم يكن قائما بعد ، كان أقرب ما يكون إلى تناقض فى مرحلة التكوين .

إن أوروبا الموحدة تبدو من بعيد عملاقا اقتصادياً يجمع دول السوق الأوروبية ، وسوف يضيف إليها مجموعة دول " الافتا " (وهى مجموعة دول أوروبا الغربية التى تكون رابطة التجارة الحرة). كذلك فمن المحقق أن عددا من دول أوروبا الوسطى ، والتى كانت في إطار الغرب من قبل (مثل المجر ورومانيا وبولندا) ، سوف تنجذب يقينا إلى أوروبا الموحدة - الأمر الذى يجعل من القارة الأوروبية كيانا أقوى مرتين على الأقل من الولايات المتحدة .

كذلك فإن وحدة من نوع آخر تتشكل فى الشرق الأقصى ، وهى وحدة يمكن أن تكون نواتها اليابان بمقدار ما أن ألمانيا هى النواة المركزية للوحدة الأوروبية .

وإذا أمكن تصور إطار يضم اليابان مع نمور آسيا الجديدة ، إذن فإن القوة البازغة في الشرق سوف تكون عملاقا آخر.

ولقد كان الفكر الأمريكى لوقت طويل عاجزا عن تصور يوم تلعب فيه ألمانيا دور القلب لوحدة أوروبية، ونفس الشىء بالنسبة لليابان فى وحدة آسيوية - وكان ظن هذا الفكر الأمريكي أن من الصعب على الآخرين أن ينسوا تجربة النازية الألمانية أو العسكرية اليابانية ، ثم تأكد أن المصالح الاقتصادية المستقبلية أقوى من الذكريات السياسية المتخلفة عن ماض غاب منذ نصف قرن من الزمان.

ولقد لاحت بالفعل بدايات اشتباك هادىء بين واشنطن وبرلين برز ظاهرا عندما تحققت الوحدة الألمانية، كما لاحت بدايات اشتباك بارد بين واشنطن وطوكيو عبرعن نفسه بطريقة سافرة فى الذكرى الخمسين لمعركة " بيرل هاربر" .

لكن هذه الاشتباكات الهادئة أو الباردة مازالت نوعا من الحمل فى رحم التاريخ، وقد يجيء مولده بعد سنين أو بعد حقب ، وبالتالى- وبواقع الحال كما هو قائم الان، وبطبيعة علاقات مشتركة مازالت مفيدة لكل الأطراف - فإن التخطيط لتناقض لم يولد بعد يصعب التفكير فيه، كما أنه تصعب التعبئة توقيا له أو تحسبا لخطره ، خصوصا وأن كليهما - اليابان وألمانيا - لا ينافسان بالسلاح، وإنما ينافسان بالاقتصاد وارتفاع كفاءة الانتاج ، وبالزحف المنظم والصامت لتراكم الغنى... وإذن فهى حتى الآن مناوشات المارك والين و الدولار لم تتحول بعد إلى معارك بالنار. وقد لا تتحول أبدا، فحروب الحقب القادمة قد تحدث بغير حاجة إلى ميادين قتال ، وقد يحدث فيها النصر أو تحل الهزيمة على شاشة جهاز كمبيوتر دون حاجة إلى رصاصة أو صاروخ أو قنبلة نووية !

وكانت هذه المستجدات كلها تجد طريقها إلى العالم العربى الذى كان هو الاخر يعيش حالة من الفوضى السياسية لم يكن منشؤها اختفاء العدو الذى يهدد الأمن القومى العربي - وإنما اختفاء المعادلة التى قام عليها الأمن القومى العربى ابتداء من سنة ١٩٥٥ حين عقدت مصر أول صفقة للسلاح مع الاتحاد السوفيتى الذى أصبح بعدها عاملا رئيسياً في كل الحسابات العربية أثناء معارك السويس (١٩٥٦) - سيناء (١٩٦٧) - الاستنزاف (١٩٦٨- ١٩٧٠)- أكتوبر (١٩٧٣) . كما أنه كان سندا للقضية الفلسطينية وغيرها من معارك التحرر العربى . كان سلاحه حاضرا ، وكان اقتصاده متعاونا ، وكانت مواقفه ودية خصوصا إذا قورنت بمواقف غيره .

وفجأة خرج الاتحاد السوفيتى من معادلة الصراع فى الشرق الأوسط ، وحل محله فراغ واسع ومخيف .

فى نفس الوقت تقريبا كانت مصر أيضا قد ابتعدت عن قلب الصراع في الشرق الأوسط ، ووقفت على أطرافه تنتظر وتراقب ... وأدى انسحاب مصر. بدوره إلى فراغ .

وحاولت الولايات المتحدة أن تملأ هذا الفراغ ، فتقدمت إلى دور انفتحت أبوابه لها . ولأن سياستها فى التجربة العربية المعاصرة لم تكن متوازنة ولا عادلة فى نظر أغلبية ساحقة من العرب ، فإن الدخول الأمريكى إلى المنطقة بعد انفرادها بالقوة على قمة العالم - زاد من حدة الفوضى فى المنطقة ولم يقلل منها. وأضيف إلى ذلك أن الولايات المتحدة التى تقدمت من أوسع الأبواب عائدة إلى الشرق الأوسط ، كانت هى نفسها فى حالة حيرة أمنية وتخبط استراتيجى .

وكانت القضية الفلسطينية أولى القضايا التى تأثرت وعانت بالفوضى التى أنشأتها حالة الفراغ الاستراتيجي الزاحفة على المنطقة - فالشعب الفلسطينى الذى صمد فى انتفاضته سنوات طويلة ، راح يجد نفسه وحيدا فى صراعه، والجو حوله قاتم وموحش لايجدد أملا .. ولا يعيد ثقة فى مستقبل أفضل تصورته ثورة الحجارة فى متناول اليد و قريباً . وكانت إسرائيل بالطبع أول الأطراف التى استغلت الظروف المستجدة واستفادت منها ، فموازين القوة الإقليمية فى صالحها ، وحتى موازين الكثافة السكانية التى كانت ضدها أخذت تتحول بعض الشىء عن طريق زيادة الهجرة من الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية التي تفككت اوصالها وانهارت حدودها المعنوية مثل الستار الحديدى، والمادية مثل حائط برلين .

وكانت سوريا قد يئست من مقولتها التقليدية عن ضرورة استعادة التوازن الاستراتيجى فى المنطقة . فقد كان هذا الهدف معلقاً بامكانية الحصول على أسلحة متطورة من الاتحاد السوفيتي ، ولكن الرئيس " حافظ الأسد " سمعها بنفسه من الرئيس " ميخائيل جورباتشوف " في زيارته لموسكو سنة ١٩٨٨ : " إن الاتحاد السوفيتي لسنوات طويلة قادمة مشغول بإعادة ترتيب بيته من الداخل ، وليس مستعداً في هذه الفترة ولا في المدى المنظور – لأن يلعب دوراً في صراعات إقليمية لا يرى أن هناك سقفاً او قاعاً لها . "

وكانت دول الخليج تزداد انطواء على نفسها، ونحاول أن تحتفظ لنفسها ببترولها خشية أن تتخاطفها المطالب من كل ناحية، مع إحساس بحالة الفراغ والفوضى التى أطبقت على المنطقة . وكانت هذه الدول الصغيرة والغنية تمنى نفسها ، وتطمئن وساوسها بادعاء أن التغيرات التى طرأت على العالم جميعا لصالحها ، فالذى انتصر فى الصراع الدولى هو الطرف الذي يحميها باعتباره المستفيد الأول من مواردها، ثم إن أنظمتها التقليدية كانت تحسب نفسها بدرجة أو بأخرى كجزء من النظام الرأسمالي العالمى ، وبالتالى فانتصار هذا النظام هو فى جزء منه انتصار لها . وكان مجمل هذا المنطق يؤدى إلى زيادة عزل الثروة العربية عن مجمل العمل العربى ، خصوصا فى حالته الحائرة والمرتبكة بتأثير المتغيرات الفادحة التى جرت .

وكان العراق فى وضع خطر، فقد انتهت الحرب العراقية - الإيرانية فجأة عندما اقتنع " آية الله الخمينى " فى الدقيقة الأخيرة أن استمرارها لم يعد ممكنا. وأدى الانهيار المفاجىء لإيران إلى مشاعر متناقضة فى بغداد. وبشكل ما فإن العراق أحس بالفراغ المباشر نتيجة لتوقف حرب شغلته واستغرقته بالكامل سياسيا وعسكريا واقتصاديا ونفسيا. وبتوقف المعارك بدأت قوة العراق تواجه نوعا من البطالة قريب الشبه من الفراغ الذى دهم القوات المسلحة الأمريكية بعد سقوط التهديد السوفيتى .

ومن ناحية أخرى فإن الفراغ العربى العام الذي غطى المنطقة كلها راح يشد العراق إلى دور إقليمى أوسع من حدوده . وكانت القضبة الفلسطينية هى الساحة المهيأة لأي طرف محلى تشده امكانياته أو ظروفه أو رؤاه إلى دور إقليمى .

وكانت بعض الأطراف الفلسطينية تعلق آمالا واسعة على الجيش العراقى . وفى حديث هامس بين زعيم فلسطينى بارز وسياسى مصري مخضرم ، أشار الزعيم الفلسطينى إلى أن " قوة الجيش العراقي تزيد عن ٥٥ فرقة ، وقد أصبح هذا الجيش هو الجيش العربى الذي عرف خبرة قتال طويل".

ثم ابدى الزعيم الفلسطينى ثقته فى " أن العراق بعد انتهاء حربه مع ايران داخل بلا شك فى معركة مع إسرائيل " . وأبدى السياسى المصرى المخضرم شكه فى هذه الامكانية ، على أساس أن العراق سوف يخرج من المعركة في حاجة شديدة إلى إعادة تعمير بلده واسترداد خطته الطموحة للتنمية ". وكان الزعيم الفلسطيني واثقاً يستشهد بحقيقة أن العراق هو الذي يقدم أكبر المساعدات للانتفاضة حتى يبقي جذوتها مشتعلة لحين تواتيه الفرصة .

------- ٣---------------------------

كانت تلك أيضا هى الفترة التى تكونت فيها مجالس التعاون الإقليمى فى الخليج وفي المغرب وفى المشرق .

وكانت إسرائيل تتابع ، وكذلك كانت الولايات المتحدة ، بينما كانت أوروبا الغربية التى أغراها الفراغ إلى حلم بالعودة لمواقع نفوذ تقليدى سابقة فى العالم العربى- تجيء وراء الاثنين (إسرائيل والولايات المتحدة) وتحاول فى بعض الأحيان سباقهما . وبادرت أوروبا إلى طرح مشروع لحل

أزمة الشرق الأوسط ، وكان اقتراحها مؤتمرا عاما للأمن والتعاون فى المنطقة ، جرى استيحاؤه من التجربة الأوروبية السابقة لمؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا . لكن الفكرة ظلت مستلقية على الأرض غير قادرة على التحليق لسبب بسيط هو أن تجربة مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا جاءت بعد أن كانت الدول الـ ٣٥ التى اشتركت فيه قد أسقطت الحواجز العقائدية والعسكرية والنفسية التى باعدت بينها طوال سنوات الحرب الباردة . وأما فى منطقة الشرق الأوسط ، فإن الأسوار والحواجز كانت عالية ، وبعضها زاد ارتفاعه بسبب الانتفاضة ومشروعات الاستيطان التى لم يقترب منها أحد بحل مقبول ، وبالتالى فإن أى تصور لمؤتمر ينقل الحوار بالنار عبر ميدان القتال إلى حوار بالكلمات عبر مائدة لمؤتمر أمن وتعاون – كان ضربا من الخيال.

وفى وسط هذا الجو المعبأ بالفراغ والفوضى والإحساس بالحيرة والضياع ، وقع اجتماع مجلس التعاون العربى (فبراير ١٩٩٠) فى عمان على مستوى القمة . ووقف الرئيس " صدام حسين " يتحدث فى هذا الاجتماع قائلاً : " اننا من هنا فى عمان نستطيع أن نرى أضواء القدس " . ثم استطرد فى خطاب حماسى وطويل يتحدث عن اغتصاب فلسطين وضياع الأرض الفلسطينية قطعة بعد قطعة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦٧. ثم توقف طويلاً أمام قضية الاستيطان الذى يهدد بتغيير نهائى فى عروبة الضفة الغربية وغزة . ثم انتقل إلى الأوضاع الدولية قائلا : " إن انسحاب الاتحاد السوفيتى من المنطقة قد أدى لفراغ انتهزته الولايات المتحدة فرصة للعربدة غير المسئولة فى مصائر العرب " . ثم أشار إلى أن الأتحاد السوفيتى ركع على ركبتيه أمام الولايات المتحدة التى تفرض هيمنتها كل يوم على المصائر والموارد العربية. (كانت تلك إشارة واضحة إلى بترول الخليج) – ثم ختم الرئيس " صدام حسين " كلامه بقوله : " إننا نريد صداقة الولايات المتحدة، ولكن الصداقة لاتكون من جانب واحد . وإذا تصور بعضنا أنهم أصدقاء الولايات المتحدة ، فإن تصورهم هذا على غير أساس ، وليس أمامنا إلا أن نؤكد أنفسنا وحقوقنا ، أو نركع مثل الآخرين ." وعندما انتهت الجلسة، وكانت مذاعة بالكامل على الهواء ، خرج الرئيس " صدام حسين " والرئيس " حسنى مبارك " جنباً إلى جنب ، وأثناء سيرهما إلى خارج القاعة قال الرئيس " صدام حسين " للرئيس " مبارك " : " يا أبو علاء .. هل تظن أن هجومي على الأمريكان كان عنيفاً ؟ " ورد الرئيس " حسني مبارك " قائلاً : " إن كل واحد منا له الحق في رأيه " .

وقال له الرئيس " صدام حسين " : " الحقيقة أنني قصدت ان اتحدث بلهجة قوية من هنا لأنني أعلم أن التلفزيون الأردني يصل لداخل الأرض المحتلة ، وقد قصدت باستعمال هذه اللهجة أن أقوي عزائم إخواننا في الانتفاضة " .

------٤-------------------------------

كانت الولايات المتحدة والعراق كلاهما- وبشكل مثير- فى وضع قريب الشبه بالآخر فى تلك اللحظة.

o كلاهما كانت لديه حرب طويلة :
٤٠ سنة من الحرب الباردة فى حالة الولايات المتحدة .

وثمانى سنوات من الحرب الساخنة فى حالة العراق مع إيران .
O وكلاهما كلفته الحرب غاليا فى موارده . فالولايات المتحدة أرادت إرهاق الاتحاد السوفيتى بسباق سلاح لا نهاية له ، وقطع الاتحاد السوفيتى أنفاسه فى محاولة اللحاق ، ولم يلحق- لكن الولايات المتحدة هى الأخرى تحملت بعبء أثقل كاهلها ، وراحت تطلب مشاركة فيه من قوى استفادت منه وازدهرت مثل ألمانيا واليابان .
والعراق نفس الشىء إلى حد كبير : فقد بدأ الحرب مع إيران باحتياطي يصل إلى ٣٦ بليون دولار، وحصل على قروض ومساعدات من السعودية ودول الخليج زادت على عشرين بليون دولار. واستدان فوق هذا كله للخارج بقرابة أربعين بليون دولار أخرى . لكنه فى تقديره كان يحمى البوابة الشرقية للأمة العربية، و كانت كل دول الخليج تقر له بذلك . لكن هذه الدول ، منذ بدأت حروب البترول سنة ١٩٧٣- ثم سنة ١٩٨٠- جنت فوائد لم تكن تخطر لأحد على بال . والعراق خارج من الحرب الطويلة ولديه خطة لتعويض ما فاته أو ما خسره .
O والولايات المتحدة وجدت عدوها فى الحرب الباردة يخرج من الميدان فجأة .
والعراق وجد عدوه فى الحرب الساخنة يقبل وقف إطلاق النار بكلمة قصيرة حزينة من " آية الله الخمينى " يقول فيها إنه " كان أهون عليه أن يتجرع كأساً من السم ولا يقبل بوقف اطلاق النار- لكنه الآن يقبله " .
O والولايات المتحدة تشعر بعد الحرب بفراغ . وكذلك العراق .
O والولايات المتحدة تبحث عن عدو فى عالم تغير . والعراق يبحث عن دور في منطقة ملأها الفراغ !

وفى قاعة قصر المؤتمرات في عمان ، فى شهر فبراير ١٩٩٠، التقى الطرفان واحتك كل منهما بالآخر فى الزحام . ولم يلتفت أحد ، فقد بدا الاحتكاك عارضاً – والواقع أنه لم يكن عارضا إلى هذا الحد !